علم اجتماع
الثورة الحسينية والمجتمع الكوفي

عماد الدين باقي

دار الهادي



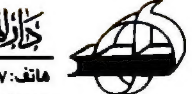
علم اجتماع الثورة الحسينية والمجتمع الكوفي

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م

ISBN 9953-484-14-7





دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ٥٥٠٤٨٧/ ٠١ ـ ٨٩٦٣٢٩/ ٠٣ ـ فاكس: ٥٤١١٩٩ ـ ص.ب: ٢٨٦/ ٢٥ غبيري ـ بيروت ـ لبنان
Tel.:03/896329 - 01/550487 - Fax: 544199 - P.O Box 286/25 Ghobeiry - Beirut - Lebanon
E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL:http://www.daralhadi.com

علم اجتماع الثورة الحسينية والمجتمع الكوفي

تأليف

عماد الدين باقي

تعريب

عبد الرحمن العلوي



للطباعة والنشر والتوزيع



مقدمة

لا ينتهي الحديث عن مثال وقدوة التحرر العقلاني، أي الإمام الحسين عليه السلام. ومع انّ النظرة الأكبر الى ثورته تلقيها عيون الشيعة -وهي نظرة دينية عاطفية في الغالب- إلّا انّ الذي لا شك فيه هو انّ هذه الثورة، هي من أبرز الثورات في التاريخ الإنساني وتتميز بميزات خاصة، وفريدة، وبنّاءة، وتُعدّ مصدراً للباحثين في التاريخ والعلوم الاجتماعية. ولو انخرط الفن التصويري -الذي يُذبح للأسف في ميدان الابتذال واللاقيمة- في خدمة التعبير الفني لهذه الثورة الحسينية، التي تُعدّ أنصع الثورات وأروعها، لأصبح نموذجاً فريداً للانسانية.

يمكن ايجاز سرّ خلود ثورة الإمام الحسين عليه السلام في: ١ـ الرمزية؛ ٢ـ الاخلاص؛ ٣ـ الاقتدائية.

تُعدّ ثورة الإمام الحسين عليه السلام، أقوم المعايير لأنواع الأطياف الإجتماعية والشخصيات الفردية التي وضعتها هذه الثورة في بوتقة النقد وعلى محك التمحيص، ووضعت بين أيدينا أسمى النتائج على هذا الصعيد.

منذ قرون متمادية وعاشوراء تشكل موضوع المباحثات والمداولات الكلامية غالباً والتاريخية نادراً، بينما لم يفكر أحد في التحدث عنها انطلاقاً من نظرية المعرفة وعلم الاجتماع.

هذا الكتاب يتألف من ثلاثة مقالات. وبصرف النظر عن واقعة عام ٦١هـ والتي اصبحت منطلقاً لممارسات أو لسلسلة من المناسك على مدى أربعة عشر قرناً من حياة شيعة وانصار أهل البيت عليهم السلام، وبصرف النظر أيضاً عن السجالات والمناظرات التاريخية والعقائدية ذات الصلة باصل هذه الواقعة، ينطلق أحد المقالات لتسليط الضوء على ثورة الإمام الحسين عليه السلام والمجتمع الكوفي من منظار علم الاجتماع. وينهض المقال الثاني بمهمة ايضاح إفرازات وآثار هذه الثورة التي تأخذ طابع المناسك والمراسم التي تشهدها الأوساط الشيعية في كل عام والتي تُعدّ من شعائرهم الدينية المهمة.

بما انّ لكل ظاهرة او تقليد، نوعين من الافرازات: ظاهرية، وخفية؛ فلا يقتصر هذا المقال على بحث الافرازات الظاهرية، مثل تعزيز التضامن الاجتماعي، بل يركز على تحليل الجانب الخفي منها، لذلك لابد لفهمها، من ظهور النزعة نحو دراسات اكثر عمومية

بشأن الدين والمجتمع وعلاقتهما بعاشوراء، في سياق الكتابة.

بما أن افرازات ونتائج عاشوراء، يتم بحثها في تاريخنا المنصرم ذي الطابع التقليدي، فهل ستنتفي هذه الافرازات في اعقاب ظهور المجتمع المدني والذي لابد أن يُعَلْمن العلاقات الاجتماعية؟

المقال الثالث، في تكريم الأربعينية الحسينية.

تمهيد

نرسم في باديء الأمر لوحة لثورة الإمام الحسين ﷺ من خلال تقديم تقرير قصير عن هذه الثورة. وبـما انّ تـفاصيل المـعلومات الواردة في هذا التقرير، خضعت للتحليل في الفصول اللاحقة، فقد تناولناها بشكل منتظم كي يتاح للقارئ ادراك التحاليل القادمة في جغرافيا الواقعة.

ثم ننطلق فيما بعد لرفض النظرية التي تقول بأنّ ثـورة الإمـام الحسين ﷺ، قد اندلعت في مـجتمع ذي نـظام قـبلي وعشـائري، وبفعل الخصومة القديمة بين بني هاشم وبني امية. ويبحث الفصل الآخر في موضوع الأزمة التي تنجم عادةً عن موت الزعـيم فـي الأنظمة الملكية، والطرق التي تمنع او تعالج هـذه الازمـة، والتـي تنطبق على وفاة معاوية ومجيئ يزيد الى العرش. كما سنبحث كيف يكمن المعارضون والمتذمرون بانتظار مثل هذه الأزمات والفرص السانحة، لاسيما مع وجود معارض كالحسين بن علي ﷺ.

نتناول بعد ذلك بعض العناصر الأساسية في التحرك مثل القيادة، والاتصال المستمر بالقيادة، والايديولوجية، والتنظيم، والفرصة السانحة، مع التأكيد على فقدان الارتباط بالزعيم، وفقدان التنظيم، وعدم انتشار الثورة.

ونتطرق خلال تناول فقدان التنظيم، الى اساليب الحرب النفسية التي مارسها عبيد الله بن زياد للتأثير على الناس، وما نجم عن ذلك من آثار وإفرازات، مع الاشارة الى انّ الثورة او الحركة حينما لا يتوفر لها التنظيم، لا تستطيع ان ترد في الوقت المناسب، وتعجز عن مجابهة الحرب النفسية التي يشنها العدو، الذي يتمتع بمثل هذا التنظيم. وفقدان التنظيم والمؤسسة المعدة لهذا الغرض، يهبط بالثورة والحركة الى مستوى عامة الناس، فتصطبغ الحركة الجماهيرية في نهاية المطاف بصبغة العمومية المتمثلة بالهيجانية، والتلقينية، والوقتية، والسذاجية.

في الفصل الآخر، يتم تسليط الضوء على عامل الفرصة، وكذلك عامل التلاحم بين الجماهير، كأهم عوامل نجاح الحركة، من اجل إثبات انّ بث حالة الشك في نفوس الجماهير وزرع الخوف في قلوبها، أديا الى تفرق تلك الجماهير عن سفير الحسين الى الكوفة ـ مسلم بن عقيل ـ وتركه وحيداً بلا مدافع، الأمر الذي انتهى الى اعتقاله وقتله مع هانئ بن عروة، وهو ما يُعدّ ضربة نفسية عنيفة للثورة.

العوامل السياسية لنكث الناس البيعة وفشل حركة أهل الكوفة،

بما انها تخرج عن دائرة البحث، نكتفي منها بالاشارة الى نـموذج واحد يتمثل في تعاون الأجانب ـأي الروم ـ مع حكومة يزيد. ثم نصل بالبحث الى أهم نقطة فـيه وهـو تـحليل المـجتمع الكـوفي اجتماعياً ونفسياً وتناول مفردات من قبيل: روح الانعزال والانزواء عند المجتمع الكوفي، وأفكار ورؤى الاجيال التي جـرّبت تـقلب الاوضاع السياسية، والعلاقة العكسية بين عنف الحكـومة وحـجم الجماهير المـنضوية تـحت لواء الحـركة، وتـوقعات رواد حـركة الكوفة، وكلمات الإمام الحسين في أهل الكوفة. ومن أهم نـتائج هذا البحث هو ضرورة توافر العديد من الشروط والعناصر من اجل نجاح الثورة، والتي منها: تواجد الجماهير، ووفاؤها. لذلك لابد من البحث عن عدم وفاء المجتمع الكوفي، في خلفيات هذا المجتمع التاريخية ونظامه الاجتماعي والسياسي. بمعنى اننا لا يـجب ان نقول بأنّ المجتمع الكوفي يتميز ذاتياً باللاوفاء والخيانة، لأنه حتى لو دعا مجتمع آخر ـكالمجتمع البـصري مـثلاً ـ الامـام الحسـين للقدوم اليه، لسلك معه عين سلوك المجتمع الكوفي، لو كان هـذا المجتمع يعيش في ظل نـفس الظـروف والأحـداث التـي عـاشها المجتمع الكوفي.

في هذا الفصل، نبيّن كيف يمكن للنظام الحاكم ان يرسي قواعده ويتجذر، ونتطرق الى موقف النخبة في الحكومة وخارج الحكومة، وأسباب صمتها او تواطئها في حادثة عاشوراء، مع تقديم تـحليل نفسي لانـقياد الجـند وطـاعتهم للـحكومة، مـع مـعرفة الاجـواء

الاجتماعية التي كانت تخيم على المجتمع الكوفي، وتعليل صمت بعضهم او انحيازهم الى جانب الحكومة خلال الثورة الحسينية، مع ايضاح الاستنتاج النهائي لهذا الفصل، المتمثل في انّ عدم اتساع حالة التعبئة الجماهيرية، ادى الى انحسار الحركة وخنقها.

نظراً لتكرار الروايات التاريخية المتعلقة بثورة الإمام الحسين عليه السلام بما فيه الكفاية، ونظراً لسهولة الرجوع اليها في معظم الكتب، اكتفينا في هذا الكتيب بتلك المجموعة من الروايات التي تفيدنا في دراستنا التحليلية هذه. ويعد كتاب «الشهيد الخالد» لصالحي نجف أبادي (١٩٧١)، أول أثر يخرق العادة والعرف في الكتابة عن الإمام الحسين عليه السلام وثورته، ثم يأتي من بعده كتاب «ثورة الإمام الحسين عليه السلام» للسيد جعفر شهيدي.

في هذا الكتيب نركز في نظرتنا الى واقعة عاشوراء، من منظار علم الاجتماع، كي تتسنى الإجابة على بعض التساؤلات. والمصادر المتوفرة تفتقد لمثل هذا الاتجاه. المصادر القديمة عبارة عن مصادر أخبارية ووقائعية. والمصدران المتأخران أعلاه، لم يكن غرضهما بحث ذلك التحرك العاشوري على أساس نظريات علم الاجتماع، رغم انهما تناولا الموضوع وفق رؤية تقع ضمن إطار علم الاجتماع، وقدّما معلومات ذات بال على هذا الصعيد.

تساؤلات

هناك تساؤلات عديدة كانت الدافع من وراء ظهور هذا الكتيب،

وهي: لماذا انقلبت المعادلة فجأة، بينما كانت قد تهيأت في الظاهر العوامل والظروف المساعدة لانتصار الثورة في أعقاب دعوة اهل الكوفة باصرار للإمام الحسين عليه السلام للقدوم الى بلدتهم وتأسيس حكومة فيها، كما كانت بوادر نصرة الإمام تلوح في آفاق مدن العراق، والبصرة، وايران، والحجاز، واليمن؟ ولماذا انطفأ على حين غرة ذلك الحماس والتفاعل، وتغيرت الاوضاع خلال بضعة أيام؟ ولماذا فشلت ثورة الكوفة؟ ولماذا تحول أهلها الى صامتين أو متفرجين أو مناوئين للإمام الحسين عليه السلام الذي دعوه الى بلادهم وبايعوه زعيماً عليهم؟

معظم الكتّاب الذين كتبوا في هذا الموضوع منذ القرن الثالث الهجري والى يومنا هذا تحدثوا عن أهل الكوفة كعناصر ضعيفة أو خائنة! غير انّ هذا الحديث لا ينهي الموضوع، ولا يجب الاكتفاء بهذه الاجابة الساذجة. فما هو السبب الحقيقي؟ لماذا أصبح هؤلاء ضعفاء؟ وهل كان لابد من وقوع واقعة عاشوراء؟ وهل هناك قوانين أو سنن يمكن تعميمها على المجتمعات منذ تلك البرهة الزمنية والى يومنا هذا؟ الاجابة التي تم استخلاصها، ستكون دليلاً لبلورة معرفة افضل بسائر المجتمعات.

التساؤل الآخر الذي يمكن ان يأخذ طابع السؤال العام حول جميع الحركات والانتفاضات الاجتماعية هو: هل كانت ثورة

الإمام الحسين عليه السلام، عقلانية(١) ام غير عقلانية(٢)؟ ويمكن ان تكون الإجابة على هذا السؤال تجريبية ـ وثائقية.

هناك تحاليل أخرى للحدث يمكن ان تكوّن إجابات موجزة على التساؤلات السابقة، من دون ان تميط اللثام عن حقائق الأمور كقولهم ان الفتن والحوادث هي المحك الذي يميز المؤمن عن المنافق، والمخلص عن المرائي؛ فالأساس وفق هذا التحليل الذي ينطلق من زاوية دينية بحتة هو: الامتحان الالهي. ولا شك في انّ هذا التحليل أو هذه الرؤية لا تدع أي مجال لفهم القضية من منظار علم الاجتماع. وينطبق هذا الأمر ايضاً على الرأي الذي يقول بأنّ فشل الحركة الكوفية ناجم عن سوء طبع اهلها وغدرهم وخيانتهم.

هناك من يقول بأنّ الرسول محمداً صلى الله عليه وآله قد تنبأ باستشهاد الإمام الحسين عليه السلام، ولابد على هذا الضوء من تحقق هذا الأمر. وبغضّ النظر عن انّ ما ورد عن الرسول صلى الله عليه وآله هو إخبار بالوقوع وليس أمراً بالايقاع، فإنّ التنبؤ ليس تعليلاً للحدث اساساً، فضلاً عن كونه لا يقوم على رؤية اجتماعية. فهذا الاتجاه يعتمد الخبر والرواية فقط، ويلقي هالة من القدسية على الموضوع فحسب.

1_ Rational

2_ Inational

تقرير موجز عن ثورة الإمام الحسين (ع)

تولى عثمان بن عفان ـ وكان من الامويين ـ الخلافة بعد وفاة الرسول الأكرم محمد ﷺ بنحو ثلاثة عشر عاماً. وقد أوكل الى معاوية بن ابي سفيان ـ وكان اموياً ايضاً ـ ولاية الشام. وكان الامويون قد حملوا لواء العداء والتصدي للرسول محمد ﷺ حين بعثه الله تعالى برسالة الاسلام، وتحملوا بزعامة ابي سفيان ضربة قاصمة على يد المسلمين في معركة بدر، سيما وقد كان بين قتلاهم شقيق معاوية، وخاله، وجده لأمه. وحينما فتح المسلمون مكة المكرمة وجد ابو سفيان وقومه انفسهم مضطرين لإعلان اسلامهم. وقد سمح لهم عثمان للظهور من جديد.

في عام ٣٦هـ، هاجم المسلمون بيت عثمان استياءاً من أساليبه، فقتلوه، وأجبروا الإمام علياً عليه السلام على الامساك بزمام الامور. فحكم الامام عليه السلام منذ عام ٣٦هـ وحتى عام ٤٠هـ، على مدى أربع سنوات وتسعة أشهر، وقد اتخذ من الكوفة عاصمة له، فذاق الناس في عهده القصير طعم العدالة الحلو، لكنّ عدالته أثارت عداء وبغضاء الطامعين وأصحاب الدنيا.

لم يكن معاوية ـ الذي نصبه عثمان والياً على الشام ـ مستعداً للتنحي عن هذه الولاية، فأعلن استقلاله عن الدولة الاسلامية التي يحكمها الإمام علي عليه السلام، وعبّأ اهل الشام لمحاربة هذه الدولة بذريعة الثأر لدم عثمان، ونشبت بين الجانبين حرب صفين وما رافقها من مؤامرة التحكيم التي مهدت الطريق لمعاوية لاغتصاب

الحكم.

في أعقاب استشهاد الإمام علي عليه السلام، بايع العراقيون الحسن بن علي عليه السلام، إماماً لهم، لكنّ الجيش الاموي لم يدع الفرصة تفلت من بين يديه، فزحف نحو الكوفة، وحدثت مناوشات بينه وبين معسكر الإمام الحسن عليه السلام، انتهت بعد أربعة أشهر الى اضطرار الإمام للتصالح مع معاوية والتنحي عن زعامة الدولة الاسلامية، في أعقاب جفاء الأصحاب وقلة الناصر.

معاوية الذي كان والياً على الشام منذ عام ١٨ـ٤٠هـ، اصبح خليفة على المسلمين منذ عام ٤٠ ـ ٦٠هـ، اي على مدى عشرين عاماً. واخذ يحكم المسلمين بقوة بعد أن تمهدت له الامور ولم تبقَ في طريقه عقبة مهمة باستشهاد الإمام علي عليه السلام، والصلح المفروض على الإمام الحسن عليه السلام. وحينما تناهى الى الاسماع استشهاد الإمام الحسن عليه السلام، اشار عمرو بن العاص على معاوية ان يعيّن ولياً للعهد كي يحكم من بعده وتبقى الخلافة في البيت الاموي[١].

فعين معاوية ابنه يزيد ولياً لعهده، وانتزع له البيعة من المسلمين، بينما كان يزيد معروفاً باللهو والشراب وملاعبة الكلاب. ويكون معاوية بهذا العمل، قد أتى ببدعة كبرى في الإسلام، وأسس النظام الملكي الوراثي الذي قوّضه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

ولي يزيد بن معاوية الخلافة بعد وفاة ابيه. ولما كان من الصعب عليه ترسيخ دعائم حكمه، لذلك حاول ان يستبق الأمور، فأمر بانتزاع البيعة من معارضيه ومناوئيه، لأنهم لو بايعوا فلن يكون

بمقدورهم بعد ذلك الوقوف بوجهه ومعارضته إذ يُعدّ هذا الموقف نقضاً للعهد وخروجاً على الطاعة، ولو لم يبايعوا لكان بـالامكان ضربهم قبل ان تسنح لهم الفرصة للقيام بأي عمل مناهض للسلطة. اضف الى ذلك، لو انّ الجميع بايعوا يزيد بن معاوية، لأُصبح الناس أشد ايماناً بحكمه، واقلّ شكـاً فـي شـرعيته، ولأدى الى ضـعف مناوئيه.

كان الإمام الحسين بن عـلي عليه السلام، يـمثل أقـوى الشـخصيات المـتحركة فـي المـجتمع وأشـدها نـفوذاً وأعـظمها تأثـيراً، لذلك فالتخلص منه بأية طريقة يسهل عملية التخلص من الشـخصيات الاخرى. لذلك قبل ان ينتشر خبر وفاة معاوية، قـام يـزيد بـعزل مروان بن الحكم عن ولاية المدينة وتعيين ابن عمه الوليد بن عتبة بن ابي سفيان والياً عليها، وبعث اليه كـتاباً يـخبره بـوفاة مـعاوية ويأمره بأخذ البيعة من اهل المدينة، وأن يطالب الحسين بن علي عليه السلام، وعبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن ابي بكر، وعـبد الله بـن الزبير بالبيعة له عن طوع او إكراه، ولو رفض اي أحد منهم ان يبايع، فليضرب عنقه ويبعث به اليه[٢].

من الواضـح انّ يـزيد بـن مـعاوية اراد ان يـنهي حسـابه مـع المعارضين قبل ان يذيع نبأ وفاة معاوية وقبل ان تتاح الفرصة لهم للمّ صفوفهم وتجهيز قواهم للانتفاض عليه. وكان الحسين بن علي عليه السلام يشكل مبعث القلق الأول ليزيد لأنه يعلم بعداء الإمام الحسين للأسرة الأموية. فكان ابوه معاوية قد سمع بأن الحسين عليه السلام ينوي

الثورة عليه فكتب اليه يحذره من ذلك، فأجابه الإمام إجابة شديدة اللهجة وذكّره بجملة من تخلفاته التي من بينها كتابة ولاية العهد ليزيد الفاسق الشارب للخمر، وأخبره بأنه لا يرى فتنة أشد وطأة من حكمه للمسلمين. لذلك لم يكن من السهل على يزيد ان يطيق وجود شخصية مثل الإمام الحسين عليه السلام الذي هو سبط الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلم من أعلام العالم الاسلامي، ولا يعترف بشرعية الأمويين.

الإمام الحسين عليه السلام كان يعلم انه إذا لم يبايع يزيد بن معاوية فسيكون هدفاً لمؤامرته، لذلك ما ان التقى بوالي المدينة، حتى خرج منها مع اسرته سراً الى مكة المكرمة، فأقام فيها أربعة أشهر وعشرة أيام. وشاع خبر تلك الهجرة في شتى أقطار البلاد الاسلامية وأخذ الناس يتحدثون فيها ويناقشونها. وفي الكوفة اجتمع مشاهير اهلها وخيرة رجالها -كان بعضهم من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثل حبيب بن مظاهر الأسدي- في دار سليمان بن صرد الخزاعي، وتحدث سليمان في ذلك الاجتماع طالباً منهم دعوة الحسين عليه السلام الى الكوفة إذا كانوا على أهبة الاستعداد لمثل هذه الدعوة، وإلّا فعليهم ألّا يخدعوه.

لم يمض على اقامة الإمام في مكة سوى شهر واحد وسبعة أيام، حتى وصلت اليه كتب عديدة من زعماء الكوفة وأهلها تشكو اليه ظلم الامويين وجورهم وتطالبه بالقدوم الى الكوفة ومبايعته إماماً لهم. فبعث اليهم الإمام ابن عمه مسلم بن عقيل -وكان شاباً

في الثامنة والعشرين من العمر، لكنه كان ذكياً وقوياً ـ سفيراً عنه كي يمهد الأمر ويطلع على مدى صدق الكوفيين وعدم وجود مؤامرة، ويرى انهم اذا كانوا صادقين في الأمر: فهل لديهم الاستعداد اللازم لتحرير الكوفة وتأسيس حكومة فيها؟

بعد عشرين يوماً من السفر الخفي، وصل مسلم بن عقيل الى الكوفة، وأمضى عدة أيام في دراسة أوضاعها وشؤونها، والتقى بوجهائها وأهلها. وبعد مرور اربعين يوماً على خروج مسلم من مكة، وصل الى الإمام كتاب منه يخبره انّ أهل الكوفة جميعاً مع الإمام، وانّ الامكانات متوفرة بالمقدار الكافي، ويدعوه الى التوجه صوب الكوفة على وجه السرعة.

خلال الفترة التي امضاها الإمام الحسين عليه السلام في الكوفة، وضعت الحكومة الأموية خطة لاغتيال الإمام عليه السلام، فعلم بها الإمام، وحينما وصل اليه كتاب سفيره الى الكوفة، عقد العزم على الخروج من مكة قبل ان يتمّ مراسم الحج لافشال الخطة الأموية في اغتياله، ولم ينجح العمال الامويون بالحجاز، في إعادته الى مكة.

بعد ان تناهت اوضاع الكوفة الى سمع يزيد بعث عبيد الله بن زياد والي البصرة، المعروف بدهائه ومكره وغلظته، الى الكوفة ليكون والياً عليها وعلى البصرة. واستطاع بواسطة عيونه وجواسيسه التعرف على موضع إقامة مسلم، وأمر هانئ بن عروة ـ المضيّف لمسلم وأحد كبار الشخصيات الكوفية ـ ان يسلّم اليه مسلماً. وحينما رفض الطلب، تعرض للضرب والاهانة وزُجَّ به في

السجن.

ادرك مسلم انّ الوالي سيبعث اليه من يعتقله، لذلك امر عدة آلاف شخص مسلح، بتطويق القصر الذي يقيم فيه عبيد الله بن زياد. وبعث الأخير بعض أفراده الى خارج القصر لجمع الرجال وتعبئتهم، مع بث دعايات مضادة لمسلم بن عقيل في سائر أرجاء المدينة. فدبّت الحياة من جديد في القوات الحكومية، وشاع الفزع بين أهل الكوفة بعد الدعاية التي بثتها عناصر ابن زياد والقائلة بأنّ يزيد بن معاوية قد جهز جيشاً كبيراً من اهل الشام نحو الكوفة، الأمر الذي ادى الى انحسار الجو الثوري.

تغيرت الاوضاع في الكوفة بينما كان الإمام الحسين عليه السلام في طريقه اليها: استُشهد مسلم بن عقيل، وفرض عبيد الله بن زياد الحكم العسكري على مدينة الكوفة. وفيما كان الإمام يتحرك مسرعاً مع اسرته واصحابه نحو الكوفة، طرق سمعه نبأ استشهاد مسلم وتغير الاوضاع في الكوفة. فتأثر الإمام كثيراً لهذا النبأ. وجمع اصحابه للتشاور معهم فيما يجب فعله، وتقرر الاستمرار في الزحف.

وفي الطريق اعترض الإمام جيش للعدو بإمرة الحر بن يزيد الرياحي وأخذ هذا الجيش يراقب حركة قافلة الإمام. وخطب الإمام الحسين عليه السلام في افراد هذا الجيش اكثر من مرة وأوضح لهم انه قد جاء للكوفة بناءاً على طلب منهم، لذلك فإنهم اذا اعرضوا عنه فانه سيعود من حيث أتى. وقد إئتمّ عسكر العدو بالإمام في

صلاة الظهر والعصر.

تلقى الحر بن يزيد الرياحي في تلك الاثناء كتاباً من عبيد الله بن زياد يأمره فيها بايقاف الحسين عليه السلام وانصاره في ارض لا ماء فيها ولا نبات. فأوقف جيش الحر الإمام في صحراء كربلاء في الثاني من محرم عام ٦١هـ، الى ان اقبلت قوات عمر بن سعد التي تولت زمام الامور وضمت اليها قوات الحر ايضاً.

كان عدد قوات العدو يبلغ في بادئ الأمر خمسة آلاف مقاتل. وان بعض أهل الكوفة الذين يُبعثون للقتال، يهربون خلال الطريق بشتى الأساليب ويخفون انفسهم عن الانظار، وقد قام عبيد الله بن زياد باعتقال وقتل بعضهم كي لا يحدّث الآخرون انفسهم بالهرب. وأخذت التعزيزات تتواصل على تلك القوات حتى قيل انها بلغت ١٨ ألفاً أو ٣٠ ألف مقاتل.

استمرت المباحثات بين الإمام الحسين عليه السلام وقيادة جيش العدو لعدة أيام. وعرض الحسين على العدو السلام، وتجنب الحرب، والعودة الى الحجاز. وبعث عمر بن سعد اقتراح الإمام الى عبيد الله بن زياد في كتاب كتبه بلهجة مؤيدة لذلك الاقتراح. وكاد ابن زياد يتأثر بكتاب عمر بن سعد، لكنّ الشمر بن ذي الجوشن صرفه عن ذلك وقال له: لو انّ الحسين افلت من بين يديك سيكون أقوى وتكون أضعف، فلابد ان يستسلم اولاً ثم إما تعاقب أو تعفو.

حاول عمر بن سعد قبل ايفاده الى كربلاء، التخلص من هذه المهمة بشتى الوسائل، خوفاً من ان يتورط في قتل الحسين بن

علي ﷺ، لكنّ يزيد كان قد بعث اليه حُكم ولاية الري ولكن بشرط قبول قيادة حرب الحسين. فكان يعيش حالة التـردد بـين ولايـة الري والتي تعني الخروج لحرب الحسين وربما قتله، وبين فقدان هذه الولاية والمُلك العظيم، فاختار الخروج والولاية.

بعد ان تشاور عبيد الله بن زياد مع الشمر، بعث الى عمر بن سعد كتاباً يأمره فـيه انّ الحسـين إذا لم يسـتسلم، فـليحاربه ويـقتله، ويدوسه بحوافر الخيل، ويمثل به. وإن لم يكن مستعداً للقيام بمثل هذا العمل، فعليه التخلي عن قيادة الجيش فـوراً للشـمر بـن ذي الجوشن.

لم يكن الإمام الحسين ﷺ مستعداً للتنازل والاستسلام تـحت اي ظرف كان، لذلك جمع اصحابه وأنصاره وأخبرهم انّ الحـرب ستقع في اليوم التالي، وانّ الاستشهاد هو المصير الحتمي لجميع من يقاتل الى جانبه، وأعطى الحرية لمن لا يريد ان يـموت، بـانتهاز فرصة الليل والظلام للتسلل من معسكره، والالتحاق بقومه، مؤكداً لهم انّ العدو لا يريد غيره، كما خيّر الإمام ﷺ اسرته بـالانفصال عنه. وحينذاك تخلى عن الإمام معظم اصحابه ولم يبق معه سوى اسرته وبعض اهل بيته وأنصاره.

وهكذا خيّر الإمام اصحابه بالبقاء الى جانبه او الانفصال عنه، وهو ما يُعدّ أجمل حركة وأروع موقف يستحق التأمل والتحليل(٣).

في صبيحة عاشوراء خطب الإمام في جيش العدو، ودعـا الى المفاوضات والصلح. فطالبه قيس بن الأشعث بالاستـسلام لحكـم

ابن زياد. فأقسم الإمام بالله انه لن يعطيهم بيده إعطاء الذليل ولن يقر إقرار العبيد. وحرّك اسلوب الإمام البعض للالتحاق بجيش الإمام كالحر بن يزيد الرياحي، كما بعث القلق والتردد في قلوب تلك المجموعة من الكوفيين التي التحقت بالحرب مكرهة وخائفة. وحينما ادرك قادة معسكر العدو انّ الانقسام يكاد يظهر على تلك القوات، بدأوا الحرب فوراً للقضاء على اي احتمال بظهور هزيمة نفسية او حدوث تزعزع في القوات المحاربة للحسين.

ثورة الإمام على ضوء النظام القبلي

بما انّ النظام القبلي هو النظام الاجتماعي الذي كان سائداً بين العرب، فلربما يرى بعض المحللين ان ثورة الإمام الحسين عليه السلام في مجتمع لديه مثل هذا النظام، ناشئة من الخصومة القديمة بين بني هاشم وبني امية، وهي الخصومة التي كانت موجودة قبل ظهور الاسلام، وتعاظمت بعد ظهور الاسلام، ثم اختفت مؤقتاً بعد انتصار الاسلام واستسلام بني امية في فتح مكة. لكنّ الروايات التاريخية، وخلفية عهد الإمام علي عليه السلام وأعماله، وخلفية مرحلة صمت الإمام علي عليه السلام، ورفض الخلافة والسلطنة من قبل الرسول محمد صلى الله عليه وآله، وتأسيس مبدأ البيعة، وغيرها، تكشف في الحقيقة بما لا يقبل الشك عن انّ التمرد على النظام القبلي العشائري، وتأصيل اساليب المدنية الحديثة على يد الرسول محمد صلى الله عليه وآله، كانت عاملاً من عوامل النزاع آنذاك.

فالنظام القبلي قد ضعف كثيراً في عهد رسول الله ﷺ، إذ كان الرسول ﷺ يرى فيه عائقاً أمام ظهور أمة اسلامية واحدة. كما انّ الآية الكريمة ﴿انّ أكرمكم عند الله اتقاكم﴾ ترفض تماماً اي إعتداد عرقي وقبلي.

للأسف، بعد وفاة الرسول ﷺ بأيام، عادت الرجعية من جديد، وتم إحياء النظام العشائري الذي كان من اولى آثاره، ظهور التشتت والتمزق بين المسلمين. وحينما تعمق هذا التمزق وعادت القيم والطبائع الجاهلية في العهد الأموي، تصور الامويون انّ اسلوب القمع والاستبداد هو الطريق للتوقي من حالة التمزق والأخطار الناجمة عنها.

بعد ثلاثة عشر عاماً من وفاة الرسول الأكرم محمد ﷺ، ولي عثمان بن عفان خلافة المسلمين، ونصب معاوية بن أبي سفيان والياً على الشام، ففكر الامويون منذ ذلك الحين في تعزيز سلطانهم والثأر لهزائمهم وانتكاساتهم في العهد الجاهلي، من آل الرسول وأهل بيته وذريته.

اضف الى ذلك انّ الاسلوب العقلاني الذي اتخذه الإمام الحسين عليه السلام في جهاده وفي الأهداف التي تحدث عنها، يؤكد على احتكام ثورته الى القواعد السياسية العقلانية والدينية وغير القبلية.

الأزمة الناجمة عن وفاة الزعيم الأوحد

من الأحداث التي طالما تتكرر على مدى تاريخ الحكومات

الملكية والوراثية، هي ظهور فراغ واضح وأزمة كبيرة عند وفاة السلطان او الزعيم القوي، لذلك تحدث عملية صراع على السلطة بين شتى القوى والفصائل التي يرى كل منها انه احق بالسلطة من غيره، الأمر الذي يؤدي في نهاية المطاف إما الى انتصار إحدى القوى، او الى تقسيم البلد الى دويلات صغيرة. والسبب في ذلك هو انّ جميع الخيوط، تتصل بالزعيم القوي الاوحد، لذلك تحدث ازمة في أعقاب وفاته ما لم تكن هناك ثلاثة شروط طبقاً لما ذهب اليه «ماكس وبر»:

١ ـ ان يحل محله فرد يمتلك المؤهلات الجسمية والسلوكية للزعيم او الحاكم، اي ان تتبلور فيه الصفات والخصوصيات القيادية. وهذه الضرورة توجب تعيين ولي العهد في حياة الزعيم.

٢ ـ ان تتم تصفية جميع المعارضين في حياة الزعيم كي لا يسعى احد منهم لخلق المشاكل والعراقيل بعد وفاة الزعيم. فالزعيم القوي الأوحد يستطيع من خلال النفوذ الذي لديه تصفية جميع المناوئين لأسرته.

٣ ـ ان تكون العلاقة بين القائد والأنصار علاقة عاطفية وعقائدية، ولابد من تحويل الانصار الى ولاة وموظفين، من اجل استمرار قوة السلطة وهيمنتها.

لاشك في انّ طول فترة الحكم يؤدي الى شعور الحاكم بالقوة، سيما اذا كان حكمه مصحوباً بقمع المعارضين والتنكيل بهم، لذلك

قام معاوية بن ابي سفيان وعلى مدى عشرين عاماً من حكمه بقتل وسجن المئات من مناوئيه وأنصار الإمام علي عليه السلام. لذلك لو حلّ محل هذا الحاكم القوي حاكم آخر ـ حتى مع عدم وجود ازمة ـ فإنه سيبدو في انظار الناس أقل شأناً من الحاكم السابق، الأمر الذي يخلق لديهم نوعاً من التجرؤ على الحاكم الجديد، مما يضطره الى اتخاذ الاجراءات التي من شأنها ملء الفاصل بينه وبين الحاكم السابق للحيلولة دون تزعزع نظامه وتهاوي عرشه. ولتحقيق هذا الهدف يسعى جهازه الاعلامي لتضخيمه وإظهاره اكبر مما هو عليه بكثير وإلصاق شتى الفضائل والمآثر به، كما يقوم هذا الحاكم من جهة اخرى باتباع اسلوب قمع المعارضين وتصفية المناوئين، وتوجيه الضغوط نحو الشخصيات التي يحتمل ان تعلن عن معارضتها في المستقبل فيرغمها إما على الاستسلام او يجرها الى المجابهة فيعمل على تصفيتها.

في أعقاب وفاة معاوية بن ابي سفيان، حدثت بعض الانتفاضات والثورات ضد الحكم الاموي بزعامة يزيد بن معاوية، كثورة عبد الله بن الزبير التي انطلقت في مكة وامتدت الى سائر أرجاء الحجاز، وكان ابن الزبير قد خرج من المدينة الى مكة في فترة قريبة من خروج الإمام الحسين عليه السلام منها؛ وثورة نجدة بن عامر الحنفي في اليمامة، وقمع النظام الاموي هذه الثورات بشدة ودون رحمة. كما تعامل هذا النظام مع الشخصيات التي يتوقع منها المعارضة او الثورة، وفق سياسة الإجبار والقوة، فخيّرها بين البيعة

ليزيد، او القتل.

في المجتمع الذي تفتقد فيه الحكومة للشرعية او انّ شرعيتها تتجه نحو الافول، وفي ظل وجود التذمر الجماهيري، يشعر الحاكم بالخوف والقلق من اية شخصية ذات جماهيرية او نفوذ في ذلك المجتمع حتى وإن لم تقم تلك الشخصية بأي تحرك مناهض للحاكم ولم تتحدث بحديث محرض ضده، لأنّها ستشكل محوراً لاستقطاب المعارضين والساخطين على نظام الحكم والحاكم الجديد. اي ان مجرد وجودها سيكون مؤثراً على توازن القوى، سيما اذا كانت المؤسسة الحاكمة تعترف بفضلها ونزاهتها وكفاءتها.

كانت فضائل الحسين بن علي عليه السلام وسجاياه ومناقبه، أمراً يتحدث به القاصي والداني، وتلهج به جميع الألسن. ونجد انّ اشخاصاً مثل الوليد بن عتبة والي المدينة، وعمر بن سعد قائد القوات التي خرجت لحرب الحسين عليه السلام، يلعنون أنفسهم ويتمنون لو انهم لم يولَدوا كي لا يُجبروا على الحاق الأذى بالحسين عليه السلام. كما ان يزيداً الذي أمر بقتل الحسين عليه السلام، حينما جئ برأس الحسين اليه وشاهد انّ الجو العام غاضب عليه، اخذ يلعن عبيد الله بن زياد ويلقي بتلك الجريمة الكبرى ـ جريمة قتل الحسين ـ على عاتقه.

لم يقم الإمام الحسين عليه السلام بأي عمل مناوئ لمعاوية ما دام معاوية حاكماً، لكنّ معاوية كان يخشاه دائماً ويشعر بالقلق منه، حتى انه كتب اليه مرة يحذره من اية حركة مضادة.

وجد الإمام الحسين عليه السلام نفسه ملزماً بالثورة، نظراً للظروف

الاجتماعية المضطربة، وانحراف النظام الحاكم عن الاصول الاسلامية، والضغوط التي كانت تمارسها ضده حكومة يزيد، وإقبال الناس عليه ودعوتهم له بانقاذهم من الظلم. ولكن هل كانت الظروف تساعد على الثورة؟

من الواضح جداً انّ الإمام كان يسعى لتأخير موعد الثورة من اجل الإعداد لمستلزماتها وتوفير الظروف المناسبة، لكنّ يزيداً الذي كان يخاف ان ينتهز الإمام لأية فرصة، بادر الى فرض الموعد على الإمام، ليستطيع ان يُفشل ثورة مبكرة لم يحن وقتها بعد.

كانت الانشدادات العاطفية والعقائدية بين الناس والحكومة، قد تمزقت منذ عهد معاوية بن ابي سفيان، وبات معظم الناس يعيشون حالة اللا ابالية، ولم يعودوا يحملون ذلك الدافع القوي للوفاء ليزيد والدفاع عنه، ولذلك مارس يزيد اسلوب الترهيب والإخافة لفرض الطاعة على الجماهير وإسكات اي صوت معارض.

كان يزيد يعاني من اللا شرعية ايضاً، لذلك سعى إما الى إجبار مراكز الشرعية على التعاون ـ كفرض البيعة على الحسين عليه السلام ـ او القضاء على هذه المراكز. وكان الإمام عليه السلام يتعامل بتحفظ واحتراس، ويسلك كل ما يجب على السياسي البارع الملتزم ان يسلكه. فبالرغم من جميع الكتب التي وصلت اليه من أعيان الكوفة ورجالها، إلّا انه بعث الى الكوفة ابن عمه مسلم بن عقيل كي يستجلي اوضاعها ويقف على موقف اهلها ورجالها عن كثب.

وبعد ان قوّم مسلم الاوضاع، والتقى بزعماء المدينة وأهلها،

كتب الى الإمام الحسين عليه السلام يخبره انّ هناك استعداداً عاماً لاستقباله والانضواء تحت لوائه، ويدعوه للقدوم الى الكوفة على جناح السرعة. ولكن ماذا حدث؟ لماذا تغيّر الكوفيون فجأة وانقلبت الاوضاع رأساً على عقب؟

نحن نعلم انّ جميع عوامل وعناصر النصر كانت متوفرة في المجتمع الكوفي مثل ضعف الحكومة، وفقدانها للشرعية، والسخط العام، ووجود المعارض القوي، واستعداد الجماهير، ووجود القيادة والايديولوجية، وانشغال النظام الحاكم بالتصدي لكثير من الثورات والحركات في شتى مناطق البلاد، كالديلم.

العناصر الاساسية للانتصار

لابد من توفر جملة من العناصر الأساسية في اية ثورة او حركة، من اجل تحقيق النصر، اهمها:

١ ـ القيادة؛ ٢ ـ الارتباط المستمر بالقيادة؛ ٣ ـ الايديولوجية؛ ٤ ـ التنظيم؛ ٥ ـ الفرصة المؤاتية.

ويلخص «تشارلز تيلي» العوامل التي تؤدي الى ايجاد تغيير اجتماعي في أربعة عوامل هي*:

١ ـ المصالح المشتركة؛ ٢ ـ التنظيم؛ ٣ ـ تعبئة المصادر؛ ٤ ـ

---

* ـ اطلعتُ على رأي تشارلز بعد كتابة هذه المقالة. وقد اوردتُ هذه العوامل بعد ان وجدتها تؤيد ما أوردته.

الفرصة (Opportunity).

فحينما يتابع الناس في سلوكهم بعض المصالح المشتركة، يتبلور لديهم آنذاك سلوك منتظم. وقد يكون التنظيم رسمياً او غير رسمي. فحينما يكون هناك وجود مسبق لتنظيم ما، تكون الحركة الجماعية سهلة. بل من الضروري وجود مؤسسة تنظيمية من أجل العمل العام والحركة ضمن مديات واسعة. ومع ذلك فمن إشكاليات الحركات الاجتماعية هو انّ نمو التنظيم الرسمي قد يجعل الحركة محافظة بشكل اكبر، وديمقراطية بشكل أقل.

الحركة بحاجة عادة الى قيادة، وقنوات اتصال بين الأفراد، وتوزيع العمل. بل قد تكون هناك حركة او ثورة تقوم على مصادر متعددة، وتتمتع بتنظيم قوي، ولديها قنوات ارشاد وتوجيه مهمة، لكنها لا تجد «الفرصة» من اجل التحرك والعمل والانطلاق. فالفرصة مهمة ـعند تيلي ـ الى درجة بحيث توازي سائر العوامل الاخرى. ويرى انّ الحكومات الدكتاتورية لا تتيح إمكانية التعبير عن الرأي، اما في الأنظمة الديمقراطية فلا تتوفر كذلك الفرصة للجميع للعمل بشكل متساو[٤].

في ثورة أهل الكوفة، كانت هناك ايديولوجية واضحة ومحددة، ولم تظهر بعد تفاسير مختلفة للاسلام. وكانت لدى الامة صورة مجملة وناقصة لطبيعة حكم الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وحتى لحكم الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم، والخليفتين عمر وأبي بكر.

وكانت تتوافر ايضاً القيادة الحكيمة المدبّرة التي تحظى بالقدسية

والاحترام كونها تتصل بالرسول الأكرم محمد ﷺ.

غير انّ أهم السلبيات التي كانت تعاني منها الحركة:

١ ـ عدم الارتباط المستمر بالقيادة؛ ٢ ـ فقدان التنظيم، مما سهل للحكومة وساعدها على شن حرب نفسية ضد الحركة، وإخـراج الجماهير من الميدان؛ ٣ ـ عدم اتساع الحركة وامتدادها، مما سهل عملية وأدها في المهد.

قطع الارتباط بين القيادة والقاعدة

انّ أهم دور للقيادة الرسمية او غير الرسمية هـو رسـم سـلوك الحركة ومسارها ووضع نموذج التصرف والتحرك، وايضاح إطـار الحركة، واستقطاب الأمة وتوحيدها وإخراجها من حـالة الضـياع والحيرة والتخبط.

لن تتكون معارضة، ما لم تكن هناك قيادة تتميز بـمواصـفات فريدة ونفوذ قوي في المجتمع. ولن تظهر اية حركة او ثورة ما لم تكن هناك معارضة. ومهما كان مستوى السخط الشعبي، فـإنه لن يتحول الى تحرك وثورة من دون وجود معارض يـتحدث بـاسم المعارضة وينطق باسم الثورة الجماهيرية.

لهذا السبب بالذات كان معاوية وابنه يزيد قلقين ازاء العراق أكثر من أي اقليم آخر لأنّ اهله يوالون الإمام علياً عليه السلام وذريته. كما كانا يحسبان للحسين بن عـلي عليه السلام حسـاباً خـاصاً مـن بـين جـميع المعارضين لكونه ابن بنت رسول الله ﷺ، ولأنه كان يسكن فـي

المدينة المنورة التي لا يفصلها عن القاعدة الجماهيرية الموالية لأهل البيت في العراق، فاصل كبير، رغم انه كان يتمتع بجماهيرية فائقة في الحجاز ايضاً.

في هذا اليوم تتنوع قنوات الاتصال ما بين القيادة والقاعدة الجماهيرية بحيث لا تستطيع اية قوة مهما كانت السيطرة على هذه القنوات ـ وهذا ما رأيناه بوضوح في الثورة الاسلامية في ايران ـ اما في تلك الفترة ـ أي عام ٦١هـ ـ فقد كانت قناة الاتصال بين القيادة والقاعدة الجماهيرية، هي السفراء والرسل، لاسيما مع المناطق والأقاليم النائية.

كان مسلم، ثم قيس بن مسهّر، سفيري الإمام الحسين عليه السلام الى الكوفة. وتمكن جواسيس عبيد الله بن زياد من معرفة الموضع الذي كان يقيم فيه مسلم بن عقيل. وبالرغم من أنّ مسلم قد اتخذ سياسة «الاستباق والهجوم»، فطوّق قصر عبيد الله بن زياد، لكنّ الفعل العنيف المضاد الذي قامت به الحكومة، وضعف اهل الكوفة وانفعالهم، كانت من بين العوامل التي ادت في نهاية المطاف الى فشل ذلك الطوق، ومن ثم اعتقال مسلم بن عقيل واستشهاده، وانقطاع الاتصال ما بين القيادة والقاعدة الجماهيرية والحركة. وأصبحت هذه القاعدة في حيرة من امرها، ولا تدري ماذا يجب عليها ان تفعل.

حينما ترامت الى الإمام الحسين عليه السلام وهو في طريقه الى الكوفة اخبار استشهاد سفيريه مسلم بن عقيل، وقيس بن مسهّر، وكذلك

الشخصية الكوفية البارزة ـ اي هانئ بن عروة ـ كان مصير سائر الشخصيات الكوفية المؤثرة الاخرى إما القتل او الزج في غياهب السجون، وخضوع المجتمع الكوفي لسياسة الترهيب والإخافة التي لم يسبق لها مثيل. وبذلك يكون الزعماء الوسط ـ أي حلقة الوصل بين زعيم الثورة والقاعدة الجماهيرية ـ قد خرجوا من الميدان قسراً. لكنّ الزعيم لا زال حياً، ولو استطاع الوصول الى الكوفة لاستطاعت قاعدته ان تستعيد عافيتها من جديد، وتلتف حوله.

فقدان التنظيم، والحرب النفسية

منذ ان عُيِّن النعمان بن بشير والياً على الكوفة، لم يحظ هذا الوالي باهتمام أهلها واحترامهم. ولم يكن لحكومة الكوفة اي نفوذ، وكانت دولة من دون شعب، بحيث انه حينما زُجّ بعبد الله المطيع في السجن، تقدم قومه نحو السجن واستخرجوه منه من دون ان يعترضهم معترض، مما شجع المجتمع الكوفي على التحرك لخلع والي الكوفة ومبايعة الإمام الحسين عليه السلام. وحتى حينما بُعث عبيد الله بن زياد والياً على الكوفة بدلاً من النعمان بن بشير، وتعامل بطريقة قاسية وعنيفة، فقد حاصر قصره بأمر من مسلم بن عقيل، عدة آلاف من الكوفيين فاضطر الى الاحتماء داخل القصر مع فئة قليلة من أنصاره، لكنه استطاع من خلال عيونه وجواسيسه والحرب النفسية، ان يمزّق صفوف الكوفيين وينال من وحدتهم، عبر العديد من الأساليب:

١ ـ أمر عبيد الله بن زياد كثير بن شهاب، وكان من زعماء الكوفة، الانطلاق الى داخل المدينة وان يجمع حوله قبيلة «مذحج» التي كانت تأتمر بأمره، ويجوب مع أفرادها في أزقة الكوفة وسككها للقيام بحرب دعائية تحذر الناس من محاربة والي الخليفة الأموي.

٢ ـ أمر عبيد الله بن زياد خمسة من رجال الكوفة مثل محمد بن الأشعث، والشمر بن ذي الجوشن، بالخروج من القصر، وان يجمع كل منهم انصاره وجماعته، ثم يبعثهم الى مناطق مختلفة في المدينة فيرفع كل منهم علماً، ثم يدعو من يريد ان ينجو من عقاب الحكومة بالتجمع تحت ذلك العلم.

٣ ـ أمر ابن زياد بالقيام بنشاطات دعائية من أعلى القصر، وايراد الخطابات المناوئة لمسلم وانصاره، والمتوعدة لكل من يقف الى جانبه ويناهض الحكم الاموي وولاية عبيد الله بن زياد.

٤ ـ اعتقال العديد من انصار مسلم والعناصر التي يعتمد عليها.

٥ ـ قام زبانية عبيد الله بن زياد وجواسيسه بدعاية واسعة في مدينة الكوفة تتحدث عن زحف الجيش الاموي من الشام نحو الكوفة. وأُذيع هذا النبأ مراراً من على سطح قصر الامارة لتثبيط همم الرجال الذين يطوقون القصر(٥).

في أعقاب تلك الإشاعات والحرب الدعائية، وجد الكوفيون انفسهم ليس في مقابل حكومة الكوفة فحسب، وانما في مقابل حكومة الشام ايضاً، ناسين ـ انه حتى لو كانت تلك الاشاعات

صحيحة ـ فانّ الجيش الشامي لن يصل الى الكوفة إلّا بعد مرور شهر كامل على الأقل، بينما كان بمقدورهم القضاء على عبيد الله بن زياد وزمرته خلال ساعات، ومن ثم الاستعداد لاستقبال الإمام الحسين بن علي عليه السلام الذي سيصل إلى الكوفة قبل الجيش الشامي بكثير، والذي لابد ان تنضم اليه حينذاك الامدادات والتعزيزات العسكرية من سائر المدن، مما يجعل من الصعب على الشاميين مجابهة تلك الجبهة الحسينية القوية.

لكنّ الحرب النفسية كانت مؤثرة على المجتمع الكوفي ورسمت له مستقبلاً مرعباً ومخيفاً، ولا شك في وجود العديد من وجهات النظر المتباينة بين افراد المجتمع الكوفي ازاء الموقف من الحسين عليه السلام، لكنّ الذي لا شك فيه هو أنّ نجاح الحرب النفسية، كان يعود الى انّ الحركة لم تبلغ المستوى اللازم من التنظيم والتعبئة الذي يسمح لها بابطال مفعول الحرب النفسية او القيام بحملات مضادة لتلك الحرب، ولم يكن لدى القاعدة ذلك الرصيد من الوعي والخبرة الذي يمكّنها من برمجة وتوجيه ردود الفعل المناسبة، كما لم تبلغ المعارضة، درجة المعارضة الجماهيرية، فيما كانت القوات الحكومية تتميز بالتنظيم والبرمجة الى حد ما.

الجمهور الساخط، لا يشكل أي خطر ما دام على شكل افراد مبعثرين ومتفرقين، ولا يختلف الامر حينذاك في أن يكون العدد كبيراً ام صغيراً، والسخط قوياً ام ضعيفاً. ولكن حينما يجتمع الافراد بعضهم الى جانب البعض الآخر خلال فترة حرجة وفي ظل مشاعر

مشتركة، سيتحولون الى جمهور لم يتوفر لديه التنظيم. ونظراً للخصوصيات التي يمتاز بها الجمهور، فإنه يتعرض لأخطار الترغيب والترهيب، ويقع تحت تأثير سياسة اللين والشدة.

عادة ما يكون الجمهور، عاطفياً، يذوب فيه الفرد. وكان المفكر الفرنسي غوستاف لوبون اول من بحث المواصفات النفسية للمشاركين في حركة ما، ويقول بأنّ الجمهور حينما يجتمع في موضع ما لبعض الاعتبارات، يتبلور شيء بإسم «العقل الجمعي»، فينسى الأفراد فرديتهم، ويقعون تحت تأثير الدوافع الآنية غالباً. ويطلق الجمهور بشتى جنسياته وأعماره ومستوياته الدراسية، شعارات متماثلة ويفكر تفكيراً واحداً. ولو هرول أحدهم لهرول الجميع، ويوسع الجمهور عقله الجمعي، ويصبح قابلاً للتلقين في أعلى المستويات، وسيؤمن بكل شيء تقريباً.

ويذهب غوستاف لوبون الى القول أيضاً بأن الجماهير تعمل من دون تعقل وبوحي من الدوافع والبواعث اللا شعورية. ويرى انّ فشل الاستقلال الفردي يعود الى القوة المنوِّمة للزعماء الذين يرجعون الى الرغبات الباطنية والأساسية للمشاركين. ولا شك في أنّ العديد من علماء الاجتماع المعاصرين يأخذون بالأمر التالي وهو انّ الناس حينما يجتمعون، يصبحون متحمسين وعاطفيين، لكنهم يرون انّ نظرية «السراية» في الجماهير، مبالغ فيها كثيراً غالباً. ويبالغ لوبون وبلومر في العقل الجمعي للجمهور. كما تبالغ نظرية السراية في لا عقلانية الجمهور الثائر، لأنه لا يعمل من دون

فكر دائماً[٦].

مع انّ جمهوراً كهذا يمكن ان يتعرض للترغيب او الترهيب، غير انّ وجود الإنقسامات بين الكوفيين، اتاحت الفرصة للحكومة لتنفيذ مخططها وإفشال التحرك الكوفي المناهض لها، كما سيتضح لاحقاً.

دور الطبقات الاجتماعية العليا

لاشك في أهمية الدور الذي تلعبه الطبقات الاجتماعية العليا وصاحبة النفوذ، في الحركات السياسية ـ الاجتماعية، حتى انّ هذا الدور يكون حاسماً ومصيرياً في بعض الأحيان. ونحن نعلم بأنّ العراق كان بمثابة جسر للاتصال بين آسيا وأفريقيا، كما كانت التجارة، من الأعمال المهمة التي يزاولها أهل الكوفة والعراق آنذاك.

وتشير التجربة التاريخية الى ان التوازن بين القوى الثلاث ـ اي النظام الحاكم، والأعيان والتجار، وعامة الناس ـ غالباً ما يسجل قدر المجتمع ومصيره، او يحدد اتجاه الحركة او الثورة الجماهيرية. ففي الثورة الفرنسية ـ على سبيل المثال ـ لو لم تضع البرجوازية يدها في يد الحكومة الجديدة، ولو لم تفقد الحكومة الاقطاعية السابقة نفوذها، لما كان بمقدور أية قوة استئصال جذور مؤسسة الكنيسة. فحينما انفصلت طبقة النبلاء عن الحكومة الاقطاعية وعبّرت عن تأييدها للجماهير، تبلورت حركة مؤثرة مضادة للحكومة. لكنها لو كانت قد وقفت الى جانب الحكومة الاقطاعية

لعملت على تثبيت حالة الكبت والخوف والارهاب، كما انها لو كانت قد وقفت موقفاً لا أبالياً، لعملت على اضعاف مؤسسة الحكومة، والاقتصاد، والدين، والجماهير، ولساعدت على ظهور ارضية مناسبة لحدوث عدوان اجنبي، او تمردات داخلية عمياء.

كان أعيان الكوفة وأشرافها منهمكين قبل الثورة، بالتجارة، ولم يكن لديهم ايمان خاص لا بالنظام الحاكم ولا بعامة الناس. وقد لبّوا نداء مسلم بن عقيل لفساد حكومة يزيد وعلوّ شأن سبط الرسول الأكرم محمد ﷺ من جانب، ولامتداد حالة التذمر الشعبي من جانب ثان، وانطلاقاً من حسابات عقلانية وبعد نظر من جانب ثالث، ورغم انّ التاريخ لم يسجل ـ وللأسف ـ أسماء جميع الذين بايعوا مسلم بن عقيل، لكنّ وجود بعض الأسماء يشير الى ما ذهبنا اليه. كما يكشف وجود بعض أسماء اشراف مكة الى جانب والي الكوفة، عن عدم وجود انطباق في الرأي ووحدة نظر بين هؤلاء، ولربما يعود ذلك الى بعض الاعتبارات والعوامل العرقية، والاقتصادية، والاعتقادية، وقراءة المستقبل، وتقويم الاوضاع وما الى ذلك.

الذي لا شك فيه هو ان الحرب النفسية التي شنّها ابن زياد وعملاؤه، وظهور حالة الشك في انتصار الثورة، سيما حين سماع نبأ زحف الجيش الاموي من الشام الى الكوفة، وخوف اولئك التجار من مصادرة اموالهم، امور دفعتهم للتخلي عن عامة الناس، والتنصل من الحركة الجماهيرية، وخروج بعضهم من الكوفة كي لا

يضطر الى اتخاذ موقف ما.

النموذج الذي سجّله التاريخ هو انّ قافلة الحسين ؑ بينما كانت تحت رقابة الجيش الذي يقوده الحر بن يزيد الرياحي، بلغت موضعاً يقال له «قصر بني مقاتل»، فنزلت في ذلك الموضع بالقرب من فسطاط شخص من أعيان الكوفة يدعى «عبيد الله بن الحر الجعفي». وكان الإمام ؑ على دراية بأهمية نصرة مثل هذه الشخصية المعروفة لثورته. فبعث اليه أحد اصحابه طالباً انضمامه الى معسكر الحسين ؑ فاعتذر عن الانضمام وقال بأنه قد خرج من الكوفة بعد ان رأى تخاذل شيعة الحسين عن نصرته واستعداد الألوف المؤلفة لمحاربته. وأقبل الحسين ؑ بنفسه عليه، فأخبره الإمام انه قد زحف نحو الكوفة لأنّ أعيان الكوفة ومشاهيرها بعثوا اليه طالبين قدومه عليهم ومعلنين عن بيعتهم له واستعدادهم لنصرته. فاعتذر الجعفي عن الالتحاق بركب الإمام وطلب منه إعفاءه لأنّ أهل الكوفة جميعاً قد انقلبوا ضد الإمام، لكنه ابدى استعداده لأن يهدي للإمام فرسه وسيفه، فلم يقبل منه الإمام هديته، وعاد الى خيمته[٧].

حينما كان عسكر الإمام محاصراً من قبل جيش الحر بن يزيد الرياحي، هرب أربعة من الكوفيين والتحقوا بالإمام. فسألهم الإمام عن أوضاع الكوفة فأخبره احدهم ويدعى «مجمع بن عبد الله» ان اشراف الكوفة وأعيانها قد باعوا أنفسهم للحكومة مقابل اموال طائلة. لكنّه صوّر موقف عامة الناس من الحسين ؑ بالصورة

التالية: «قلوبهم معك وسيوفهم عليك»[٨].

لابد من التذكير بالأمر التالي وهو انّ النظام في الغرب كان ارستقراطياً، ففي روما القديمة كان النبلاء والارستقراطيون هم الذين ينصبون الحكام ويعزلونهم، اما في الشرق، لاسيما في آسيا، فقد كانت الحكومة، ما فوق الطبقات العليا والمتنفذة.

الفرصة، والتردد

بعد ان تلقى والي البصرة عبيد الله بن زياد مرسوماً من يزيد بن معاوية يأمره بالسير الى الكوفة واستعمال العنف لاستئصال المعارضة، انطلق نحو الكوفة يستحث الخطى لا يلوي على شيء، وما ان أصبح على مشارف هذه المدينة حتى قرر توجيه الضربة النفسية الاولى لأهلها، اذ انتظر هناك ريثما تغيب الشمس، ثم تلثم ولبس عمامة سوداء، وتقلّد سيفه، وامتطى بغلته وانطلق في بطانته نحو قصر الإمارة.

كان الكوفيون ينتظرون بلهفة وفارغ الصبر قدوم الحسين بن علي عليه السلام، لذلك حينما رأوا موكب عبيد الله بن زياد، تصوروه الحسين عليه السلام، فأخذوا يرحبون به ويسلمون عليه افواجاً افواجاً، ويعبّرون عن فرحتهم به، فكان يرد على ترحيبهم وسلامهم بالايماء الى ان وصل الى القصر، حينذاك وجّه أحد مرافقيه الصدمة النفسية المخطَّط لها، فباغت الجماهير المزدحمة بقوله: «تأخَّروا هذا الامير عبيد الله بن زياد»! فكان لهذا الخبر وقع الصاعقة على

الرأي العام وشعر بالانذهال والارتباك، وهكذا بدأت تدبّ في النفوس مشاعر الخوف والقلق.

استطاع عبيد الله بهذه الطريقة كذلك ان يصل الى قصر الإمارة بسلامة وأمان، كما تلاعب من خلال هذه الخديعة بعواطف الجماهير ومشاعرها وإذلالها والنيل منها، وتمكن ايضاً من تقدير الجماهيرية التي يتمتع بها الإمام الحسين عليه السلام ومعرفة الوجوه البارزة المؤيدة له.

في صبيحة اليوم التالي توجه ابن زياد الى المسجد وخطب في اهل الكوفة خطبة اخذ يتوعد فيها المعارضين والرافضين لحكومة يزيد، ويحذر أهلها من مغبة اي سلوك تُشم منه رائحة التمرد على الحكم الأموي، ويقول بالحرف الواحد: «سوطي وسيفي على من ترك أمري وخالف عهدي». وأمر باعتقال اي غريب في المدينة، وعين الجواسيس للبحث عن مسلم بن عقيل.

استدعى ابن زياد، هانئ بن عروة، وكان من ألمع وجوه المجتمع الكوفي ويخبّئ مسلم بن عقيل في داره، وطلب منه ان يسلّمه مسلماً فرفض هانئ طلبه. فانهال عليه ابن زياد يضربه بقضيب كان بيده، وأخذ يهشم به وجهه وأنفه. ثم حبسه في إحدى غرف القصر.

تسرب الخبر الى خارج القصر بأنّ هانئ قد قُتل، فتحركت مذحج ـ عشيرة هانئ ـ صوب قصر الإمارة وطوّقته. فاستخدم ابن زياد اسلوب المكر والاحتيال ايضاً، فطلب من شريح القاضي، ان يخرج اليهم ويخبرهم ان هانئ بن عروة بخير ولم يُمسّ بأي سوء،

ففعل ذلك، فتفرق افراد قبيلته وانطلت عليهم الحيلة. وقد قُتل مع مسلم بن عقيل فيما بعد امام انظار الناس وأُلقي بجسديهما ورأسيهما من أعلى قصر الإمارة.

بعد ان استطاع الوالي الاموي ان يقتل كلاً من هانئ بن عروة ومسلم بن عقيل، خيّم جو الرعب والخوف على الكوفة بشكل لم يسبق له نظير، وكان عبيد الله بن زياد قد استخدم اسلوب الحرب النفسية وطريقة الترهيب منذ دخوله الى الكوفة، فأشاع الرعب ليس بين وجوه المدينة وأعيانها فحسب، بل بين عامة الناس ايضاً.

فخلال الساعات التي كان فيها هانئ بن عروة في السجن، وكان انصار مسلم يحاصرون قصر ابن زياد، كان جلاوزة عبيد الله بن زياد يطبّقون خطة مرسومة الهدف منها ادخال الرعب الى قلوب الكوفيين من خلال شتى الدعايات الكاذبة كقولهم انّ عساكر الشام في طريقها الى الكوفة. وكان هناك شخص يدعى «كثير بن شهاب» ينادي من أعلى قصر الإمارة: أيها الناس، يا شيعة الحسين بن علي، يا شيعة مسلم بن عقيل! ارحموا أنفسكم، وارحموا ابناءكم ونساءكم! فها هي عساكر الشام قادمة اليكم، فلو لم ترجعوا الى بيوتكم فسوف يُلقى القبض عليكم، ويُبعَث بكم الى الشام فيُقتَل البريئ بجريرة المسيئ والحاضر بدلاً من الغائب. فأخذ الناس ينسحبون وينصرفون عن مسلم افراداً وجماعات يثبِّط كل منهم عزيمة الآخر، وقد امتلأت افئدتهم رعباً ونفوسهم خوفاً، مبررين موقفهم التخاذلي هذا بأنهم لا طاقة لهم على مواجهة تلك الفتنة

وعليهم ان يراقبوا اين ستصل الامور[٩].

بما انّ تلك الجماهير الحاشدة لم تكن منظَّمة ومعبّأة، فقد كان مصيرها التشتت والتفرق. فخلال الفترة القصيرة التي أصيب الناس فيها بالحيرة والتردد، وحينما حل الليل، وأوى الجميع الى دورهم، لم يبق امام هؤلاء سوى فرصة قصيرة لاتخاذ قرار حاسم والخروج من حالة التردد، وتحديد الموقف النهائي. وانتهز العدو هذه الفرصة القصيرة واستثمرها تماماً فغيّر المعادلة، وقلب النتيجة، وأفشل الثورة التي كانت على أعتاب الانتصار، فنجح في اعتقال مسلم بن عقيل الذي تخلى عنه انصاره وبقي وحيداً من دون حمى او مأوى، فوجّه ضربة نفسية قاصمة للحركة الجماهيرية. وفي مثل هذه الاحوال يتضح مدى اهمية اغتنام الفرص واللحظات.

النموذج الحي على اغتنام الفرص، ما شاهدناه خلال الثورة الاسلامية عام ١٩٧٩. فحينما تعاظمت الحركة الشعبية وتأكّد للجميع حتمية انتصار الثورة، اعلنت حكومة بختيار المنهكة في عصر الثامن من شباط من ذلك العام عن فرض الأحكام العرفية ومنع التجول. وكان الغرض من ذلك القرار اتاحة الفرصة للحكومة لاعتقال زعيم الثورة ومعظم الشخصيات المؤثرة فيها، لتوجيه ضربة شديدة للحركة وإخمادها. وأدرك زعيم الثورة الاسلامية الامام الخميني «قدس سره» ذلك الهدف، لذلك أمر الجماهير بالبقاء في الشوارع وعدم الانسحاب منها الى بيوتهم ففوّت بذلك الفرصة على الحكومة الجائرة لتنفيذ مؤامراتها.

من هذا نفهم انّ فقدان أي عنصر، يمكن ان يقوّض الحركة او الثورة برمتها حتى مع توافر جميع العناصر الاخرى. فعنصر الزمان او «الفرصة»، يلعب دوراً رئيسياً في تحديد مصير الحركة. فلولا حالة التردد، ولو استمرت الجماهير الكوفية في حركتها، ولم تفك الحصار عن قصر الإمارة إلّا بعد اعتقال او قتل عبيد الله بن زياد، لما كانت النتيجة كما رأينا.

لاشك في أنّ النتيجة الوحيدة التي كان يمكن ان تحدث هي النصر الحتمي، لأن تلك الاستمرارية لن توفر أية فرصة للعدو الذي كان يبحث حتى عن بصيص امل من اجل تنفيذ مخططه وتوجيه ضربته، سيما وانّ مسلم بن عقيل قد ربح المعركة في ارض العدو بعد محاصرته لقصر عبيد الله بن زياد.

ليس في ثورة الكوفة فحسب، بل اصولاً في جميع الثورات والحروب، حينما يسقط الخندق الاول للعدو، يبدأ العد التنازلي. فالجيش الفرنسي بقيادة نابليون قد استولى على اوربا بأسرها وحقق الانتصار في جميع الحروب، حتى بدا نابليون وكأنه الزعيم الذي لا يُقهر. ولكن مع اول هزيمة بسيطة له في اسبانيا، اخذت روح الشجاعة تدبّ في الاوربيين، وبدأت مرحلة جديدة من الهزائم المتلاحقة التي تحل بنابليون، والتي انتهت باعتقاله ونفيه.

في الحرب العالمية الثانية، زحفت الجيوش الألمانية في اوربا وآسيا ووصلت الى أعماق روسيا. لكنها حينما انكسرت في إحدى الجبهات، بدأت سلسلة من الانكسارات انتهت بخسارتها للحرب.

وقد لعب الخبر الذي بثته هيئة الاذاعة البريطانية القائل «أنّ قوات التعزيز الألمانية قد اصطدمت بجيوش الحلفاء وحلّت بها هـزيمة نكراء، وأنّ قوات الحلفاء تزحـف نـحو الجـبهة الروسـية لمـقاتلة الألمان»، دوراً كبيراً في إضعاف القوات الألمانية.

قد يكون للخندق دور حياتي في مصير معركة ما. فماذا لو كان هذا الخندق مدينة تؤلف مركز ثقل الثورة؟ وماذا سـيكون مـصير المدن الاخرى لو فشلت الثورة في هذا الخندق؟ اهم إشكـاليات تلك الثورة هو عدم وجود تخطيط وبرنامج يأخذ على عاتقه دعم الثورة والثوار وأُسرهم مادياً في أعـقاب تـنحي أشـراف المـدينة وتجارها، وكذلك عدم تعبئة الجماهير لمواجهة الحرب والصدمات النفسية التي من المـمكن ان تـوجَّه لهـا، وعـدم رفـدها بـالوعي الضروري في هذا المجال. وقد لاحظنا في غياب هذا الوعي، كيف اعتراها التردد والقلق في أعقاب الشائعات التي اخذت تتحدث عن زحف الجيش الشامي نحو الكوفة، وما تلاها من تخاذل الجماهير ونكوصها.

هناك مبدأ مهم في علم الاجتماع يقول انّ الجماهير ـ التي تتميز باللا تنظيم ـ تتحمس وتتهيج مع ظهور نوافذ الأُمل بالنصر، وتثبط عزيمتها وتتوقف عن الحركة مع حلول الظلام في الأفق. ولا يثبت في ساحة الوغى والصراع إلّا أفراد من قبيل حـبيب بـن مـظاهر، ومسلم بن عوسجة، وابي ثمامة الصائدي، نظراً لتميزهم بـدوافـع عقائدية خـالصة، وليست لدى أي أحـد مـنهم دوافـع مـادية او

مصلحية، فضلاً عما لديهم من ايمان عميق بالهدف. لذلك شاهدنا كيف يقف هذا النموذج من الشخصيات الفذة الى جانب الإمام الحسين عليه السلام في صحراء كربلاء ويستشهد معه ذوداً عن المبدأ ودفاعاً عن العقيدة.

لقد انتهز النظام الحاكم فرصة التردد التي انتابت الجماهير وكذلك غفلتها، وعودتها الى بيوتها، فسمح له ذلك بتحقيق الانتصار على حركتها. غير انّ هذه الخطوة سرعان ما أخرجت المجتمع من حالة التردد، واتاحت له المجال كي يعيد ترتيب صفوفه وينظم افراده من اجل الثأر والانتقام.

العوامل السياسية

يمكن ان تُعد العوامل السياسية من العناصر المؤثرة على طبيعة الحركة وتغيّر الاوضاع. فمثلاً حينما حوصر قصر عبيد الله بن زياد من قبل الثوار، وتمت السيطرة على جميع منافذه وطرق الخروج منه والدخول اليه، تمكن جلاوزته من الخروج من إحدى بوابات القصر المجاورة لمساكن بعض الأسر الرومية[١٠]، فاستطاعوا بهذه الطريقة ان يكونوا على اتصال مستمر مع عبيد الله بن زياد وتطبيق دسائسه ومكائده التي اوصاهم بها، والعمل على اجهاض الحركة الكوفية بسلاح الاشاعة وحربة الحرب النفسية. ولولا دعم القوى الأجنبية، لم يكن بمقدور عبيد الله طعن القوات المسلمة من الخلف. ولم ينتبه الثوار الى تلك الثغرة، لأنّ عملية تطويق القصر كانت

عفوية ولم يتم التخطيط لها من قبل.

اضف الى ذلك انّ أحد كبار مستشاري يزيد، كان رومياً ايضاً يدعى «سرجون»، وهو الذي اقترح على يزيد ان يبعث عبيد الله بن زياد من البصرة الى الكوفة لاجهاض الثورة الكوفية.

ذمّ أهل الكوفة على لسان الأئمة

نظراً لتوارد الأخبار عن ذم اهل الكوفة على لسان الإمام علي عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام، والسيدة زينب، وسائر أئمة اهل البيت عليهم السلام، راحت الأدبيات الشيعية والآثار التاريخية تصف اهل الكوفة بالخيانة والغدر وكأنّ هاتين الصفتين، من الصفات الذاتية والأصيلة لهؤلاء. ووقع الباحثون والمحققون تحت تأثير الأحكام والمواقف التاريخية، وقلما سمح أحد لنفسه بالخروج من تأثير تلك الاجواء، ودراسة الموقف الكوفي دراسة موضوعية ومن منظار علم الاجتماع، للتدليل على انّ ما حدث في الكوفة انما هو معلول لنظام اجتماعي معين، فضلاً عن انّ انقلاب الاوضاع الفردية والجماعية، امر لا مفر منه في حالات الأزمات، والتمردات، والثورات.

لربما كان ذم الأئمة لأهل الكوفة قد أسدل ستاراً على ذهن هؤلاء وتصوروا انّ الدراسة العلمية المحايدة للمجتمع الكوفي، والتي تستلزم تجاهل الحكم المسبق، تعني عدم الاهتمام بكلام الأئمة، بينما انّ فهم اسرار وعوامل عدم وفاء المجتمع الكوفي من

زاوية علم الاجتماع، يمثل عبرة للمجتمع الاسلامي ودرساً يمنعه من تكرار مثل هذه الحالة، وهو ما يريده ائمة اهل البيت عليهم السلام.

أهل الكوفة في كلمات الإمام علي عليه السلام

يروي آية الله منتظري في «شرح نهج البلاغة» قصة إغارة الضحاك بن قيس الفهري على ضواحي الكوفة فيقول بأنّ معاوية بن ابي سفيان جهز الضحاك بأربعة آلاف مقاتل لمهاجمة ضواحي الكوفة قائلاً له:

«سر حتى تمر بناحية الكوفة وترتفع عنها ما استطعت، فمن وجدته من الأعراب في طاعة علي فأغر عليه، وإن وجدت له مسلحة او خيلاً فأغر عليها، وإذا اصبحت في بلدةٍ فأمس في أخرى، ولا تقيمنّ لخيل بلغك انها قد سُرِّحت اليك لتلقاها فتقاتلها».

فأخذ قيس بن الضحاك يغير على المدن والقرى فيسلب وينهب ويقتل ويشيع الخوف والرعب في قلوب اهلها، حتى انه أغار على مجموعة كبيرة من اهل الكوفة كانت قاصدة بيت الله الحرام لأداء مناسك الحج، فسلب اموالها وقتل عدداً من افرادها. وحينما تناهى الى سمع الإمام علي عليه السلام خبره، جهز اليه ثلاثة آلاف فارس بإمرة حجر بن عدي، فاشتبك الجيشان، واستُشهد مقاتلان من جيش حجر، وقُتل ١٧ رجلاً من جيش الضحاك، الذي انهزم في جُنح الظلام عائداً الى بلاد الشام.

فقال الإمام علي ﷺ في أهل الكوفة:

«أيها الناس المجتمعة ابدانهم المختلفة اهواؤهم».

رغم انّ اهل الكوفة كانوا خلقاً عظيماً، ولكن كان لكل منهم رغبة وهوى. فواحد يقول لنخرج الى الحرب اليوم، وآخر يقول لنخرج للحرب غداً، وثالث يقول لنظل في الكوفة.

فالأهواء هنا، جمع هوىً، اي ميل النفس سواء كان ميلاً حسناً ام سيئاً، اما هوى النفس فيراد به اصطلاحاً، الميول والنزعات الشيطانية.

«كلامكم يوهي الصُّمَّ الصّلاب، وفعلكم يُطمع فيكم الاعداء، تقولون في المجالس كيتَ، فإذا جاء القتال قلتم: حيدي حياد».

«يوهي»، اي يُضعف ويُفتّت؛ «صُمّ»، جمع أصم، اي الأطرش. فمع انّ الصمم صفة يوصف بها الانسان الذي لا يسمع، ولكن يُقال كذلك للصخر القوي بـ «الأصمّ». و «الصلاب»، جمع «صليب». لذلك قد يكون مراد الإمام علي ﷺ بـ «الصم الصلاب»، القلوب القاسية. فهو بهذا يقول لهم انكم تتكلمون بكلمات كبيرة وتنشدون الأراجيز التي تبعث الخوف في القلوب القاسية الصلبة، اما على صعيد العمل، فأعمالكم تشجع العدو على ان يطمع فيكم.

«أيَّ دار بعد داركم تمنعون، ومع ايَّ إمام بعدي تقاتلون»؟

أي أنتم حينما تعجزون عن الدفاع عن مدينتكم الكوفة، فهل يمكنكم ان تدافعوا عن غيرها؟ وحينما لا تطيعون إماماً وزعيماً مثل علي ﷺ الذي يتميز بكل هذا القدم في الإسلام والالتزام

بالمبدأ والرسوخ في العقيدة، ولا تنطلقون معه لقتال العدو، فهل بوسعكم إطاعة زعيم آخر، والقتال الى جانبه؟

«المغرور والله من غرَّرتموه».

اي انكم قوم لا يمكن الوثوق بهم والاعتماد عليهم.

«ومن فاز بكم فقد فاز والله بالسهم الأَخْيَب، ومن رمى بكم فقد رمىٰ بأفوقَ ناصلٍ».

«السهم الأخيب»، السهم الذي ضرره أكبر من نفعه، و «الأخيب»، على وزن أفعل، مشتق من «الخيبة»، اي الخسران والفشل. و «الأفوق» من السهام، هو السهم المكسور الفوق؛ والفوق، موضع الوتر من السهم؛ و «الناصل»، العاري عن النصل.

اذن يقول الإمام للكوفيين: انكم لا تأثير لكم ولا نتيجة، إذ لا يمكن الدخول بكم في الحرب، ولو دخلتم في الحرب فإنكم لا تقاتلون.

«أصبحتُ والله لا أصدّق قولكم، ولا أطمعُ في نصركم، ولا اوعدُ العدوَّ بكم. ما بالكم؟ ما دواؤكُم؟ ما طبّكم؟ القومُ رجالٌ أمثالكم. أقولاً بغير علم! وغفلةً من غير ورع! وطمعاً في غير حق؟!»[11].

هكذا يعبر الإمام في هذه الكلمات الواضحة التي تقطر أسىً، عن عدم ثقته بأهل الكوفة لا في اقوالهم، ولا في أعمالهم، ولا في قتالهم، ويُلفت أنظارهم الى أهل الشام الذين يقاتل بهم معاوية، فانهم رجال مثلهم، لكنهم يسمعون قوله ويقاتلون بين يديه رغم انهم على باطل وأصحاب علي ﷺ على حق.

شيدت الكوفة على يد سعد بن أبي وقاص بأمر من عمر بن الخطاب. كان ذلك خلال عودة ابن ابي وقاص من حربه مع ايران التي انتصر فيها المسلمون. وأسكن الجيوش التي كان يقودها، والتي كانت من شتى القبائل العربية، في هذه المدينة. اي ان الكوفة ـ في حقيقة الأمر ـ مدينة الجنود الذين لهم خلفية عسكرية طويلة. فكانوا يتقاضون الرواتب من بيت المال، الّا ان نشاطاتهم العسكرية كانت قليلة. فالجيش في الاستراتيجية العسكرية يجب ان يكون متأهباً للحرب باستمرار ومستعداً لخوض غمار المعارك في أية لحظة يُطلب منه ذلك اما الجيش الكسول المتوطن فلا يبعث إلّا على الخسارة: نفقات باهضة، وعطاء قليل. والجيش الذي كان مع الإمام في الكوفة، هو من هذا القبيل.

لذلك يخاطب الإمام علي عليه السلام هذا الجيش قائلاً:

«قاتلكم الله!! لقد ملأتم قلبي قَيحاً، وشحنتم صدري غيظاً، وجرَّعتموني نُغَبَ التَّهمام أنفاساً، وأفسدتم عَلَيَّ رأيي بالعصيانِ والخذلان، حتى لقد قالت قريش: إنّ ابن ابي طالب رجل شجاع، ولكن لا علم له بالحرب».

«القَيح»، مافي القرحة من الصديد؛ «شحنتم صدري»، ملأتموه؛ «النُغَب»، جمع نُغبة، اي الجُرعة؛ «التهمام»، الهم.

ولاشك في انّ الرجال الذين لا شجاعة لهم ولا غيرة، ليس لهم من الرجولة سوى الصورة، ولذلك يقول الإمام علي عليه السلام في الكوفيين:

«يا اشباه الرجال ولا رجال! حُلوم الأطفال، وعقول ربّات الحِجال».

ويعبّر الإمام علي ﷺ عن غضبه على المجتمع الكوفي بقوله:

«لوددتُ أنّي لم اركم ولم اعرفكم معرفةً ـ والله ـ جَرَّتْ ندماً، وأعقبتْ سَدَماً».

وتواترت على الإمام علي ﷺ الأخبار باستيلاء أصحاب معاوية على البلاد، وقدم عليه عاملاه على اليمن وهما عبيد الله بن عباس وسعيد بن نمران لما غلب عليهما بُسر بن أبي أرطأة، فقام ﷺ على المنبر ضجراً بتثاقل أصحابه عن الجهاد، ومخالفتهم له في الرأي، فقال:

«ما هي إلّا الكوفةُ أقبضُها وأبسطُها».

«قبض الكوفة وبسطها»، كناية عن التصرف فيها. والحقيقة هي انّ الإمام ﷺ يريد انْ يقول انّ هذا الوهن الذي عليه اصحابه، جعل بلاده تتعرض للهجمات والعدوان، بحيث لم يبق لديه سوى الكوفة يتصرف فيها. بل أنّ الكوفة نفسها غير مطيعة له تماماً، وانما تتلاعب بها الاهواء والفتن، لذلك نراه ﷺ يخاطب الكوفة قائلاً:

«إن لم تكوني إلّا أنتِ تَهُبُّ أعاصيرُكِ، فقبَّحكِ الله».

هذه العبارة تنم عن مدى غضب الإمام علي ﷺ على الكوفة وسكانها. فهذه المدينة التي كانت عاصمة البلاد الاسلامية ومركز الخلافة، وتزخر بالجنود والمقاتلين، الا تستحق اللعن إذا كانت متمردة على إمام المسلمين وغير سامعة لرأيه، ومنصرفة الى الدنيا

عنه؟! ولا شك في انّ لعن المدينة يعني لعن أهلها.

ثم يعبِّر عليه السلام عن استيائه منهم قائلاً:

«اللهم إني قد مللتهم وملّوني وسئمتهم وسئموني فأبدلني بهم خيراً منهم».

وحينما لا يطيق أناس كهؤلاء حكم إمام عادل أمين صادق، الا يستحقون ان يحكمهم حاكم ظالم شرير:

«وأبدلهم بي شراً مني».

كان الامام خيراً، ولم يكن شراً، فلربما تعني عبارته هذه: «أبدلهم شراً بدلاً مني أنا الخير»، او بما انهم يرونه شراً، رغم انه ذروة الخير، لأنّ المعاند الكاره للحق لا يحب الخير، لذلك يقول الإمام عليه السلام: بما انني شرّ في أعينهم، فأبدلهم بي شراً مني».

ثم يقول عليه السلام بعد ذلك:

«اللهم مِثْ قلوبهم كما يُماث الملح في الماء».

أي: اللهم اذبهم كما يذوب الملح في الماء؟

لقد بلغ بهم التمرد والعصيان حداً لم يعد يرى الإمام خيراً فيهم، ولا لنفسه حاجة بهم، وأضحى عدم وجودهم أكثر فائدة من وجودهم.

ثم قال عليه السلام والألم يعتصر قلبه:

«اما والله لوددتُ أنّ لي بكم الف فارس من بني فراس بن غنم:

هنالك لو دعوتَ اتاك منهم

فوارسُ مِثلُ أرميةِ الحميمِ»

وكان بنو فراس معروفين بالشجاعة، والانقياد لزعـيمهم، لذلك كان يتمنى الإمام لو كان لديه الف فارس من بني فراس بدلاً من جيش الكوفة بأسـره. فـهؤلاء الفـرسان حـينما يُـدعَون للـقتال، يسارعون ملبين كسحاب الصيف الذي يمتاز بكونه أشـد جـفولاً وأسرع خفوقاً لأنه لا ماء فيه، وانما يكون السحاب ثـقيل السـير لامتلائه بالماء.

«ثم نزل عليه السلام من المنبر»[١٢].

وفضلاً عن الإمام علي عليه السلام، هناك كلمات للسيدة زينب في ذم اهل الكوفة، ومنها قولها لهم حينما شاهدتهم يـبكون عـند رؤيـة سبايا الإمام الحسين بينما كانوا قد تخلوا عن نصرة الإمام الحسين:

«يا أهل الكوفة، يا أهل الختل والغدر، أتبكون، فلا رقأت (أي لا جفّت) الدمعة، ولا هدأت الرنّة، انما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً». كذلك نجد كلمات في ذم الكوفيين، وردت على لسان ائمة اهل البيت عليهم السلام.

الكوفيون من منظار علمي الاجتماع والنفس

لا ينبغي اتخاذ ذم الكوفيين اساساً للتقييم وإصدار الحكم بحق اهل الكوفة خلال اية دراسة لثورة عاشوراء، لأنّ هذا الذم معلول لمجموعة من العلل والعوامل. ومن الواضح انّ العلل هي التي يجب ان تخضع للتحليل والدراسة.

فالكوفة ـ وكما ذكرنا ـ مدينة حديثة شيدها سعد بن ابي وقاص لقواته العائدة من الحرب مع الساسانيين في ايران، وقد كتب الى عمر بن الخطاب يقترح عليه بناءها كي تكون قاعدة او معسكراً لتلك القوات، فوافق على ذلك.

اذن فالمدينة كانت خاصة بالجند والعسكر بشتى درجاتهم ورتبهم العسكرية، والذين كانوا ينتسبون الى قبائل مختلفة. فالقبيلة كانت قضية مركزية عند العرب، وهناك حالة من التعصب القبلي لا توصف. فعلى سبيل المثال لو مرّ شخص من قبيلة ما بديار قبيلة اخرى، وقام اطفال تلك القبيلة بإثارة ناقة ذلك الشخص وعملوا على جموحها، فستعتبر قبيلة هذا الشخص ذلك التصرف إهانة لها وعدواناً عليها، فينطلق افرادها شاهرين سيوفهم للثأر من القبيلة المعتدية، فيقتلون العشرات، ثم تقوم هذه القبيلة بالثأر لقتلاها، وتستمر هذه العملية الثأرية وقد تمتد الى مائة عام!

اذن فالكوفة التي تقطنها قبائل عديدة، كان تسود فيها روح التفاخر القبلي، والعصبية القبلية، لذلك كانت تقف تلك العصبية خلف الكثير من الحروب والصراعات. وكان الإمام علي عليه السلام مستاءاً من تلك الثقافة الجاهلية، لذلك كان يسعى للقضاء على العصبية القبلية.

يقول البعض انّ الإمام عليه السلام كان قد أورد الخطبة المعروفة بالقاصعة وهو على ظهر الناقة. ولربما كان يجتمع هناك رؤساء القبائل وزعماء القوم. وقد بدأ تلك الخطبة بذم ابليس، لأنه عليه السلام اراد

ان يحطم روح العصبية الذي يُعدّ ابليس أول من أثارها فأخرجته عن الطريق السوي ودفعته نحو الطغيان والتمرد، فقال عليه السلام:

«.. فسجد الملائكة كلهم اجمعون إلّا ابليس اعترضته الحمية فافتخر على آدم بخلقه.. الا ترون كيف صغّره الله بتكبره، ووضعه بترفعه، فجعله في الدنيا مدحوراً وأعدّ له في الآخرة سعيراً».

ثم يحذّرهم قائلاً:

«فاعتبروا بما كان من فعل الله بابليس إذ أحبط عمله الطويل وجهده الجهيد».

فالكوفة التي كانت تعيش حالة التعددية الاجتماعية، وتفتقد الى الهوية التاريخية، وتقطنها شتى القبائل والأسر، لم تكن تعرف معنى التضامن الاجتماعي، وكانت مستعدة للإنقسام والتطاحن في أية لحظة. فالنفاق الفردي، رذيلة أخلاقية ولكن تحوله الى وباء ـ حسب تعبير رودكيم ـ يُعدّ ظاهرة اجتماعية منبثقة من طبيعة النظام الاجتماعي، والسياسي، والثقافي.

من جانب آخر، لم تكن الكوفة في وضع مادي مطلوب، وكان أعيانها والطبقات الثرية فيها، ذوي نفوذ وسلطان. ويُعدّ الموقع الاقتصادي، عاملاً مهماً في تنظيم السلوك السياسي والاجتماعي. وكان الأعيان والأشراف ومن يرتبط بهذه الشريحة الاجتماعية، يعيشون حالة الحذر والاحتراس خوفاً على ما لديهم من اموال ومصالح ومكانة اجتماعية، لاسيما في أوقات الأزمات.

اضف الى ذلك انّ العصبيات القبلية في المجتمع الكوفي ذي

الأطياف والأعراف والقبائل المتعددة، كانت تقوي دائماً حالة تواطؤ البعض ضد البعض الآخر، او التواطؤ مع الحكومة ضد القبائل الاخرى. وبصرف النظر عن هذا اللون من القلق وبواعثه، فلاريب في انّ العصبية القبلية تحول دون ظهور الوفاق الاجتماعي الضروري لأية حركة اجتماعية. وحتى لو ظهر مثل هذا الوفاق فإنه سرعان ما يتحطم بفعل معول العصبية القبلية والتفاخر بالعشيرة، والمال، والأشخاص.

يخاطب الإمام علي عليه السلام الكوفيين في خطبته القاصعة التي اشرنا اليها، قائلاً:

«فأطفئوا ما كمن في قلوبكم من نيران العصبية، وأحقاد الجاهلية»[(١٣)].

فهذه العصبية لا تنبثق من قلب مؤمن، ولذلك بدأ حديث العصبية من الشيطان فـ«صَدَّقَهُ به أبناءُ الحميّة».

من اجل ان يتبلور لدينا ادراك عميق وموضوعي، ولكي نبتعد عن الآراء المسبقة في حركة الكوفة وثورة الإمام الحسين، والمآل الذي آلت اليه، لابد من دراسة الوضع الاجتماعي في الكوفة، والوقوف على عوامل تذبذب موقف المجتمع الكوفي.

١ ـ نحن نعلم انّ اي مجتمع حينما يخرج مهزوماً من الحرب، لابد ان يعيش حالة الانزواء والعزلة، وطلب الأمن والسلام، والتهرب من الحرب وأحداثها الدموية لفترة طويلة من الزمن. والمجتمع الكوفي قد خاض غمار ثلاث حروب دامية على الأقل

هي الجمل، وصفين، والنهروان، وقلما كان هناك بيت في العراق (البصرة، والكوفة و...) لم يفقد أحد أبنائه. كما انّ معاوية بن ابي سفيان قد قتل او سجن خلال عهده المئات من أصحاب الإمام، وليس بوسع احد ان يتجاهل الآثار والصدمات النفسية لمثل هذه الحروب والأحداث.

٢ـ برهنت الثورات والحروب الداخلية والأهلية على انّ الكتلة المنتصرة لا ترحم المعارضين قط فتمارس بحقهم القتل والتصفية او تحرمهم على الأقل من جميع الحقوق، والفرص، والامكانات المهنية والاجتماعية. لذلك فالجيل الذي عاش مثل هذه الظروف وجربها، لابد وأنه كان يرى انّ الاوضاع غير ثابتة، ويتوقع انقلاب الامور في اية لحظة لصالح هذه الجهة او تلك. اي انه يصبح على درجة كبيرة من الحذر واليقظة والتحفظ في التعامل مع الأحداث، ويسعى لايجاد حالة من التوازن بين الوضع الذي هو عليه وبين ما يمكن ان يستجد من أحداث، ويحاول قدر الإمكان الّا يقع ضحية للتغييرات التي قد تحصل بشكل مفاجئ. ولا شك في انّ هذا اللون من التفكير يخلق عند صاحبه عدم الحزم، وعدم الصراحة، والتساهل، بل وحتى النفاق في الحالات الشديدة.

لقد جرّب اهل الكوفة العديد من الوقائع والأحداث على مدى ثلاثين عاماً منها: الفتن التي شهدها عهد عثمان وثورة الأمة ضده، وحكومة الإمام علي عليه السلام وحروب الجمل وصفين والنهروان، وخروج معاوية على الإمام علي عليه السلام وانشقاقه عن الدولة الاسلامية

واستئثاره بالسلطة وتأسيس الدولة الاموية في الشام. فالكوفة التي كانت على مدى ما يقرب من خمس سنوات، إحدى أهم مدن العراق، ومعايشة للأحداث السابقة ومراقبة لها عن كثب، تميز اهلها بوعي سياسي أكبر من غيرها من المدن، فكانوا السبّاقين لدعوة الإمام الحسين عليه السلام اليهم.

٣ـ هناك دائماً نسبة عكسية بين سياسة العنف والقمع التي تمارسها الحكومة وبين حجم الثوار والمنتفضين. اي كلما كانت الحكومة أشد عنفاً وأكثر قمعاً كلما كان حجم الكتلة الثائرة أقل وأصغر. وهناك ارتباط مباشر بين احتمال الخطر وشدة الحركة. فالحكومة القمعية تعمل على تقليص الدافع وتحول دون الانخراط في الحركة من خلال رفع حالة الخطر الذي يتعرض له الفرد. بينما يزداد حجم المساهمة الجماهيرية في اي تحرك او ثورة حينما يشعر المواطن بقلة احتمال الخطر.

طبعاً، تتحول في بعض الاحيان وفي ظل بعض الظروف شدة القمع والكبت الى عامل تسريع للتحرك والانتفاض. ولا مجال لاستعراض هذا الموضوع.

اذن على ضوء العلاقة العكسية التي اشرنا اليها بين عنف الحكومة وحجم الجمهور الثائر، بما انّ ردة الفعل التي سيتخذها يزيد ازاء حركة اهل الكوفة، كانت متوقعة من قبل الجميع، كما انّ خلفية تعامل اهل الكوفة مع الامامين علي عليه السلام والحسن عليه السلام، كانت لا زالت عالقة في الأذهان، وكان رواد انتفاضة الكوفة على علم

بتذبذب اهلها، لذلك تحدث سليمان بن صرد في الاجـتماع الذي عُقد في داره قبل انطلاق شرارة الانتفاضة قائلاً:

«انّ معاوية قد هلك وانّ حسيناً قد تقبّض على القوم ببيعته، وقد خرج الى مكة، وأنتم شيعته، وشيعة أبيه، فـإن كـنتم تـعلمون أنكـم ناصروه ومجاهدو عدوه، ونقتل انفسنا دونه، فاكتبوا اليه وأعلموه، وإن خفتم الفشل والوهن فلا تغرّوا الرجل في نفسه».

قالوا: «لا، بل نقاتل عدوه، ونقتل انفسنا دونه».

قال: «فاكتبوا اليه». فكتبوا اليه(١٤).

لم يـلتفت رواد الثـورة وقـادة المـعارضة الى انّ القـرار الذي اتخذوه، كان في ظل ظروف عادية وطبيعية، غافلين عن احتمال تغيير هذا القرار على صعيد الواقع والعمل، وفـي مـيدان المـعركة، وحينما تكون الظروف من نوع آخر.

اضف الى ذلك انّ ذلك القرار لم يتخذه ابناء الكوفة قاطبة، وانما اتخذه صفوتهم ورؤساء القبائل وأقطاب المـعارضة الذيـن كـانوا يتحدثون باسم جماهير الكوفة وأهلها. وللأسف لم يبق هؤلاء على عهدهم الذي عاهدوا به الحسين عليه السلام عدا قلة قليلة جداً أبت الا ان تستشهد وفاءاً للعهد مثل هانئ بن عرورة.

٤ ـ اضف الى ذلك، يكفي ان يشعر في ذروة العمل، جزء مـن الجمهور الثائر بالشك واليأس، حتى تُصاب الحركة كلها بـالفشل والسقوط. فقد يبقى الجزء الأعظم من الجمهور وفياً للحركة، لكنه سيتخذ حالة الانفعال في ظل مثل تلك الظـروف. وعـليه فـاللوم

يجب ان يوجَّه نحو تلك المجموعة التي تركت مواضعها وأدارت ظهرها لمعسكرها.

من نقاط ضعف الجمهور ـ لا سيما إذا لم يكن منظَّماً ـ هو انه يشعر بالتوحد في ظل ظرف خاص وطارئ، وتتصاعد عنده حمى الحماس، ويعمل على اساس العاطفة غالباً، بعيداً عن العقلانية ومن دون ان يتوافر لديه وعي لعمق الحركة وأهدافها. كما انه غير قادر في معظم الأحيان على التكهن والتخطيط. اما القائد والزعيم فإنه أكثر من الجميع ادراكاً لعمق الحركة وأهدافها.

وهكذا انطلق الكوفيون لدعوة الإمام الحسين عليه السلام بحماس لا نظير له، وتفاعل لا يوصف، وخيمت على مدينة الكوفة اجواء حماسية وعاطفية عجيبة، غافلين عن ان اقل تساهل يعني توجيه ضربة قاسية للحركة الشعبية في العراق وايران.

ما قلناه وما سنقوله، لا يخص الكوفيين فحسب، وانما يصدق على جميع الأمم والشعوب وسكان جميع المدن والأقاليم. فليس الأمر انّ اهل الكوفة يحملون جينات الغدر والخيانة وانهم لهذا السبب تخلوا عن الحسين عليه السلام ولم ينصروه رغم دعوتهم له وعهدهم اليه. فالصحيح هو لو انّ اهل البصرة او اية مدينة اخرى هم الذين كانوا قد دعوا الإمام الحسين عليه السلام وكانوا يعيشون في ظل نفس الظروف التي عاشها الكوفيون، لكان موقفهم منه كموقف اهل الكوفة.

اذن لا يمكن انتقاد الكوفيين على اساس انّ الخيانة جزء لا

يتجزأ من طبعهم، ولا يمكن اعتبار عدم وفائهم عاملاً وحيداً في فشل الثورة، لأنّ استعداد الجماهير للتضحية او للتنصل من الالتزام والانسحاب من المعركة، يخضع للعديد من العوامل التاريخية والاجتماعية. فالاستعداد ليس هو الشرط الوحيد للثورة بحيث تُلام الجماهير لو فشلت الثورة، وتُمدح لو انتصرت.

اولئك الذين يعتقدون انّ اهل الكوفة هم السبب الوحيد في الفشل، يغفلون عن انّ الجماهير ليست هي العنصر الوحيد اللازم في الثورة والانتفاض، وانما هناك عناصر ضرورية اخرى لابد من توافرها الى جانب عنصر الجماهير، اي انّ الثورة اشبه بالعربة التي لا تتحرك إلّا حينما تتوافر جميع اجزائها المهمة. لماذا يصف المؤرخون الكوفيين بالخيانة؟ انّ هؤلاء كانوا يشاهدون عن كثب تغير الحكام والولاة الدائم منذ عهد الرسول محمد ﷺ وحتى عهد الإمام الحسين عليه السلام، ويعيشون في ظل اوضاع الحروب، والصراعات، والاعتقالات، والإعدامات. فكان عدم ثبات الاوضاع السياسية، يبعث الخوف والقلق في قلوب الناس من المستقبل، ولا يسمح لهم بالتعويل على اية ظاهرة او حالة.

كانوا مستائين من معاوية، ثم من يزيد، لذلك حينما شاهدوا الظروف مؤاتية اعربوا عن استعدادهم لمؤازرة الحسين والتخلص من الجور الأموي، لكنهم كانوا مستعدين للعودة الى الحالة الأولى، اي حالة اللا اطمئنان، وذلك بفعل الظروف النفسية المهيمنة عليهم. ولذلك عرف ابن زياد كيف يتعامل معهم، ويصرفهم عن نصرة

الحسين عليه السلام.

ليس من حق احد ان يتهم امة ما بأنها خائنة فطرياً، بل لو حدثت خيانة من قبلها، فعليه ان يبحث عن اسباب تلك الخيانة في طبيعتها الاجتماعية والسياسية، وكذلك في خلفيتها التاريخية. فالكثيرون يقولون انّ الكوفيين غير اوفياء، لكنهم لم يتساءلوا: لماذا؟ فهناك نماذج كثيرة مماثلة للنموذج الكوفي في العديد من المجتمعات التي كانت خاضعة للاستبداد. ثم انّ الإمام عليه السلام كان يعلم بحقيقة الوضع الذي عليه المجتمع الكوفي، وقد نصحه بعض صحابة الرسول بعدم الذهاب الى الكوفة لأنها خذلت اباه وأخاه، لكنه لبّى الدعوة الكوفية الموجَّهة اليه لأنه لو لم يلبِّ تلك الدعوة فسيوجَّه اليه في المستقبل السؤال التالي: اما كان يجب عليه القيام والثورة في ظل ظروف كان قد اصبح فيها دين جده ضحية لأطماع الأمويين، وباتت الامة ترزح في اغلال الظلم، مع استعداد اهم مدن العراق لنصرته والقتال بين يديه؟

٥ ـ للامام الحسين كلمات يسلط فيها الضوء من منظار علم الاجتماع، ليس على المجتمع الكوفي فحسب، وانما على عامة الناس:

«إنّ الناس عبيد الدنيا والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درّت معائشهم فإذا مُحِّصوا بالبلاء قلّ الديّانون»[١٥].

وهناك كلمات عديدة عن الإمام علي عليه السلام بهذا الصدد، منها ما ورد في نهج البلاغة، مثل:

«فإنّ الناس قد اجتمعوا على مائدة شبعها قصير وجوعها طويل».

فالمائدة هنا كناية عن متاع الدنيا ولذائذها.

والناس ـ شرقيين كانوا ام غربيين ـ يجتمعون عادة حول مائدة الدنيا التي فيها ما لذّ وطاب. وهذا الأمر لا يخص فرقة او طائفة خاصة من الناس، وانما يتعلق بجميع الناس. اي انّ الناس جميعاً يمتازون بحالة الالتفاف حول الدنيا والاستمتاع بها، والاغتراف من منهل لذائذها. وقد شُبِّهت الدنيا بالمائدة لأنّ المائدة تحتوي على جميع الأطعمة التي يميل اليها الجائع. ففي الدنيا كذلك جميع تلك الأشياء التي يطلبها اهل الدنيا. فالبعض يطلب الثروة، والبعض الآخر يطلب المرأة والأولاد، وآخرون يطلبون الجاه والمنصب، وهكذا. ولا يشعر طلاب الدنيا بالشبع، أي لا يتوقف طلبهم عند حد معين. بل حتى لو شبعوا فانّ هذا الشبع لا يستمر طويلاً. وقد فسر بعض مفسري نهج البلاغة قوله ﷺ «شبعها قصير وجوعها طويل» بقولهم: لقد اجتمع اهل الدنيا حول مائدة الدنيا ومتاعها لكنهم لن يمكثوا كثيراً حول هذه المائدة فسرعان ما يغادورن هذه الدنيا الى الآخرة الأبدية. ولربما المراد من هذه العبارة هو انّ الناس يعملون ويجدّون ويجتهدون كثيراً من اجل الحصول على متاع الدنيا، لكنهم حينما يحصلون عليه، لن يستمر في أيديهم طويلاً. كمثال على ذلك انّ الشخص الذي يطلب مبلغاً كبيراً من المال فإنه يسعى ويجد ويبذل الجهود الحثيثة المتلاحقة للحصول على هذا المال، فيكون طيلة هذه الفترة الطويلة جائعاً، اي يشعر انه بحاجة

ماسة الى هذا المبلغ، لكنه سيشبع حينما يتحقق لديه الحصول عليه، لكنّ هذا الشبع لن يستمر طويلاً[١٦].

يقول الإمام الحسين ﷺ:

«الناس عبيد الدنيا، والدين لعق على السنتهم يحوطونه ما درّت معائشهم فإذا مُحِّصوا بالبلاء قلّ الديّانون».

وهكذا يمكن ان يكون كلام الفرزدق ـ الشاعر العربي المعروف ـ المعبّر الحقيقي عن الحالة التي كان عليها الكوفيون. فقد كان خارجاً من الكوفة حينما التقى بالإمام الحسين ﷺ الذي كان يزحف نحوها، فسأله الإمام عن الوضع الذي ترك الناس عليه في الكوفة فأجابه: قلوبهم معك وسيوفهم عليك.

لابد أنْ نشير الى الأمر التالي وهو انّ الكثير من الكتّاب يهاجمون الكوفيين ويقولون بأنهم كانوا ضعفاء امام الجائرين، وأشداء امام الحكام اللينين. كما يصف هؤلاء الكتّاب، اهل الكوفة بأنهم اصحاب مشاعر حادة، وقرارات سريعة، وندم سريع، وتأثر سريع، وعاطفيون[١٧] الخ، وكأنّ هذه المميزات، خصوصيات أصيلة عند أهل الكوفة ومنبعثة من ذواتهم.

منذ عام ١٩٧٩ حينما انتصرت الثورة الاسلامية في ايران والى يومنا هذا، أصبح شعار «لسنا أهل الكوفة، لن ندع الإمام وحيداً»، من اشهر الشعارات الرسمية في ايران. ويوحي هذا الشعار بأنّ الخيانة صفة ذاتية لأهل الكوفة. ولا شك في ان تعميم هذه الصفة لا معنى له إطلاقاً، إذ لا يمكن ان يكون جميع اهل الكوفة هكذا، كما

لا يمكن ان تكون هذه الصفة منحصرة بأهل الكوفة فقط.

التاريخ يكشف بشكل واضح عن ضعف الجماهير غير المتنظّمة أمام الظالمين وحكام الجور والاستبداد، ولابد من وجود بعض الأسباب والعوامل التي تقف خلف هذه الظاهرة، ولابد كذلك من البحث عن هذه الأسباب في دراسة النظام الاجتماعي وطبيعة تركيبة المجتمع الذي تنتمي اليه تلك الجماهير، من اجل ان يكون بالإمكان تقديم تفسير واضح لحالة الخيانة.

٦ ـ لا يُعدّ حجم الاستياء الشعبي عاملاً حاسماً في الحركة او الثورة، إذ انّ الاغلبية الساخطة لا تكون مصدراً لأي تحرك ما لم تلتف حول محور او قطب واضح. فالسخط الشعبي لا يؤدي بمفرده الى إحداث اي تغيير. اي ما دامت لا توجد معارضة فالسخط او التذمر الجماهيري لن يقود الى تغيير. والتجربة التاريخية تشير الى الحقيقة التالية وهي ان «الأقلية الوفية» او «الأقلية المنظَّمة» التي تمسك بزمام السلطة بمقدورها التغلب ببساطة على الأغلبية الصامتة. وتستطيع الحكومة بعد ان يطول عهدها، خلق جبهة موالية لها، وتأسيس المؤسسات التي تدعم وجودها وتعمل على استمرارها، والسيطرة على ذهنيات الجيل الجديد الذي وُلد في عهدها. وتكتسب المزيد من التجارب، وتصنع الكوادر، وتوكل بشكل تدريجي جميع مرافق الدولة والمناصب السيادية الى العناصر التي اعدّتها لهذا الغرض وأصبحت موضع ثقتها، فتؤدي في نهاية المطاف الى ظهور حالة من الإرهاب المنظَّم

في المجتمع.

مجموع هذه الظروف وغيرها، تجعل من الصعب جداً ظهور اي حركة او ثورة مناهضة للحكومة. ولهذا السبب بالذات لجأ الحسين بن علي ﷺ الى الصمت والانتظار طوال عهد معاوية بن ابي سفيان الذي كان يحكم من دون منازع.

في ظل مثل هذا المجتمع، يكون حال عدد كبير من النخب، أشبه بالغدران الصغيرة التي يجري كل منها بمعزل عن غيره، لكنها لو اجتمعت جميعاً لأدت الى ظهور نهر كبير يهدد بوقوع السيل. لذلك فالمهمة الاولى التي تنهض بها الحكومات الاستبدادية، تتمثل في الحيلولة دون التحام هذه الغدران، وهي المهمة التي قد تتحقق في كثير من الأحيان من خلال ايجاد اجواء الارهاب والإخافة.

يتحقق النجاح للحكومة المستبدة الجائرة حينما تعتاد النخب على حالة التفرق والتشتت، لكنها لو سعت للتمرد على وجوه الفرقة، واقترب بعضها من بعض على اساس المشتركات القائمة بينها، لأدى ذلك الى تبلور أهم عناصر التحرك الاجتماعي. وفي المدينة المنورة كان يعيش أربعة من أشهر الشخصيات القيادية وهم: عبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن ابي بكر، والأهم منهم جميعاً هو الحسين بن علي ﷺ، غير انّ هذه الشخصيات الاربع لم تكن متفقة فيما بينها للعديد من الاعتبارات والأسباب، ولم يكن بوسع انصارها الاجتماع والتكاتف ايضاً.

٧ـ حان الآن الأوان كي نسأل: لماذا صمت اهل العراق ـ الذين

كانوا يشاهدون فسق الحكام وفجورهم ـ إزاء مقتل الحسين بن علي بن ابي طالب؟

لابد من البحث عن الإجابة من خلال دراسة الوضع الذي كانت عليه «النخب» و «الجماهير».

أ ـ النخب السياسية الواقعة خارج إطار الفئة الحاكمة، عادةً ما تحسب للامور حسابها، لذلك تكمن متحينةً الفرصة، ومتخذةً سياسة الصبر والانتظار، وهي السياسة التي توفر للعدو فرصاً أكثر. وقد يجلس السياسيون في بعض الأحيان يراقبون الاوضاع عسى ان تفشل تجربة الفئة الحاكمة او تعيد النظر في نهجها وسياستها، فتنفتح الأبواب بوجوههم. وقد يعوّلون أحياناً على العناصر الايجابية او المعتدلة داخل المؤسسة الحاكمة.

هناك تصور لدى السياسيين وهو: بما انهم حينما تحيط بهم الاخطار، لا تنبري اية قوة اجتماعية للدفاع عنهم في اللحظة المناسبة، لذلك لا يضعون انفسهم في موضع الخطر، ولا يقومون بخطوات محفوفة بالمخاطر، لأنّ المجتمع غارق في حياته اليومية عادة، كما انّ اولئك الذين يتميزون بالحساسية السياسية، يفتقدون للتنظيم من جانب، وأسرى الواقع الحياتي والمصالح التي يتطلبها هذا الواقع من جانب آخر.

على هذا الأساس، غالباً ما تكون روح النخب والجماهير، روحاً تابعة لا موجِّهة. اي انها تنتظر الآخرين كي يقوموا بعمل ما، وكي يقتحموا الخطوط الدفاعية الاولى، ثم تقوم بالتحرك بعد ذلك

في حالة وجود ما يبعث على الأمل والتفاؤل، وتسعى لكي تسبق الجهة المبادرة وتعتّم عليها.

يُعدّ عمر بن سعد بن ابي وقاص، نموذجاً على النخبة المعتدلة داخل المؤسسة الحاكمة والتي صمتت على قتل الإمام الحسين عليه السلام وأنصاره في واقعة عاشوراء. فحينما وصلت قافلة الإمام الحسين عليه السلام الى كربلاء، اجتمع عبيد الله بن زياد بقادة جيشه وأمرائه، وقال لهم: من منكم يخرج لحرب الحسين وقتله؟ فلم يجبه أحد. فاضطر ابن زياد لاختيار ذلك القائد بنفسه. فوقع اختياره على عمر بن سعد، فاعتذر في بادئ الأمر، فهدده ابن زياد بسحب العهد الذي سبق ان كتبه له بولاية الري إن لم يخرج لحرب الحسين عليه السلام. فبات ليلته يصارع نفسه بين الملك والسلطان وبهارج الدنيا وزخرفها، وبين عدم قتل الحسين وعدم اقتراف مثل هذه الجريمة البشعة التي يخسر فيها آخرته ايضاً. فوجد نفسه مضطرة لاختيار الملك والسلطان، والذي معناه الخروج لقتال الحسين وربما قتله.

واتجه ابن سعد بقوات الكوفة نحو كربلاء، لكنه كان يفكر في انهاء الموضوع مع الحسين من دون قتال، لذلك فتح باب الحوار معه، وعقد العديد من الاجتماعات، باذلاً جلّ جهوده كي تحل الأزمة بين الجانبين بالطرق السلمية. وحينما وصلت الاخبار الى عبيد الله بن زياد من خلال عيونه التي كانت بين قوات ابن سعد، بأنّ هذا الأخير يتفاوض مع الحسين، ولا يريد ان يحسم الموقف، كتب اليه ابن زياد يلومه على التسويف والمماطلة ويهدده بأنه إذا

لم يحسم أمر الحسين بالقتال فعليه ان يعتزل عن قيادة الجيش للشمر بن ذي الجوشن وتسليم الامور اليه: «.. فإنْ انت مضيت لأمرنا فيه جزيناك جزاء السامع المطيع، وإن أبيت، فاعتزل عملنا وجندنا، وخل بين الشمر بن ذي الجوشن وبين العسكر، فإنّا قد امرناه بأمرنا»، فوجد ابن سعد نفسه مرغمة على الاستسلام للنوازع الشيطانية، فقرر اغلاق باب الحوار، والتأهب لقتال الحسين عليه السلام، مفضلاً الدنيا الفانية على الآخرة الباقية[١٨].

لربما تبدو هذه المقايضة عجيبة للغاية. ولكن لربما قام مثل هؤلاء المتعجبين بأمثال هذا اللون من المقايضات في مستويات اخرى وعلى أصعدة اخرى. فنحن نشاهد في المجتمعات التي من حولنا ـ شرقية ام غربية ـ كيف يتعامل الكثير من الناس وفي شتى المستويات، من اجل اكتساب الامتيازات الاجتماعية والألقاب والعناوين والمناصب السياسية، وكيف يبدون استعدادهم للتضحية بكثير من القيم والمبادئ من اجل تلك المصالح.

ان حب الشهرة والسلطة والمقام والثروة، يعمي في بعض الأحيان قلوب البعض وعيونهم بحيث يفقدون القدرة على الرؤية والتمييز. ومن اجل ان يهدئ هؤلاء من حدة تأنيب الضمير وعذاب الوجدان، ينطلقون باتجاه عالم التبريرات، لتبرير تلك الأعمال وإسباغ الصفة المشروعة عليها، حتى وإن كانت على حساب حياة الآخرين وأرواحهم، غير انّ الله تعالى يقول: «بل الإنسان على نفسه بصيرة» اي انه ابصر بنفسه من غيره، وأقدر على تحديد مدى

إعتبار تلك التبريرات. فكان بوسع عمر بن سعد التنصل من مهمة محاربة الإمام الحسين، لكنه يحاول تبرير القيام بهذه المهمة بالطريقة التالية: إذا رفضتُ هذه المهمة فسيقوم بها غيري، ولابد ان تحدث على يده تلك المأساة الدموية. اما إذا نهضت أنا بها فلربما استطيع ان احول دون محاربة الحسين. والحقيقة هي انه عندما وافق على مهمة محاربة الحسين، فانه قد وضع نفسه في بداية طريق السقوط وسينحدر باتجاه وادي السقوط النهائي، لأنّ نفسه قد تلوثت، وسيداخله تفكير آخر في منتصف الطريق وهو انّ الأزمة القائمة ستنتهي بقتل الحسين، وسيتحقق السلام. اي ان قتل الحسين، سيحول دون اهراق المزيد من الدماء ودون تطاحن الامة فيما بينها. ولاشك في انّ هذه التبريرات هي التي كانت ولا زالت وراء الكثير من الكوارث والمآسي والأزمات.

ب ـ سنكتفي على صعيد الجيش، بالتطرق الى موضوع الطاعة من زاوية علم النفس. فالطاعة العمياء من قبل انسان لديه العقل، والقابلية على تحليل الأشياء، امر حظي باهتمام علم النفس الاجتماعي. ويشهد التاريخ على نماذج متعددة لهذا اللون من الطاعة، كالمذابح الجماعية في فيتنام، وفلسطين، وكذلك المجازر التي ارتكبها الجيش النازي.

قام علماء النفس الاجتماعيون بالعديد من الاختبارات لمعرفة العوامل الكامنة وراء هذا اللون من الممارسات، ومنها تلك التجربة التي قام بها استانلي ميلغرام في جامعة بيل عام ١٩٦٣. فمن خلال

إعلان نُشر في الصحف يدعو للاشتراك في تجربة خاصة بـالتعلم، ثمّ انتخاب ٤٠ شخصاً دُفع لكل منهم ٤,٥ دولاراً لاشتراكه في تلك التجربة.

خلال هذه التجربة، وُضع الى جانب كل شخص، شخص آخر متعاون مع صاحب التجربة. وتم على أساس القرعة اختيار أحـد هذين الشخصين كمعلم والآخر كتلميذ (غير انّ القرعة كانت تـتم بطريقة تجعل من الشخص المتعاون مع صاحب التجربة، تـلميذاً). ووضع التلميذ في غرفة والمعلم في غرفة اخرى. وكانت هناك في غرفة المعلم منضدة عليها الاسئلة التي يجب ان يوجهها للـتلميذ، وامامه لوحة كهربائية موزعة عليها أزرار يشير كـل زر الى رقـم فولتي معين بدءاً بفولتية قليلة وانتهاءاً بفولتية عالية خطيرة. وكان عمل المعلم ان يجلس خلف لوحة الفولتية (الصدمة الكـهربائية)، ويطرح الأسئلة على التلميذ الجالس في الغرفة المجاورة من خلال ميكروفون.

في الغرفة الثانية المجاورة لغرفة المعلم، يجلس التلميذ ـ الذي هو الشخص المتعاون مع صاحب التجربة ـ خلف مـنضدة عـليها أربعة أزرار، لابد له من الضغط على أحدها للإجابة على السؤال الذي يسمعه، حيث يمثل أحد الأزرار الإجابة الصحيحة من بـين أربع إجابات معطاة لكل سؤال. وتوجد في غـرفة المـعلم لوحـة اخرى عليها مصباحان اخضر واحمر، فإذا أجاب التـلميذ إجـابة صحيحة يضيء المصباح الأخضر، واذا اجاب إجابة خاطئة يضيء

المصباح الأحمر. فاذا كانت إجابة التلميذ خاطئة، يلجأ المعلم الى الضغط على أحد أزرار الفولتية او الصعق الكهربائي كعقوبة له، فتنتقل تلك الصعقة اليه من خلال حلقة معدنية حول معصمه.

وهدف صاحب التجربة من هذه التجربة، ان يرى مدى إطاعة المعلم لأوامره في توجيه الصعقات الكهربائية للتلميذ، وهل سينفذ امره في توجيه الصعقات ذات الفولتية العالية المهلكة ايضاً رغم ظهور علائم الخطر والتحذير حين ضغطه على تلك الأزرار.

قبل ان يجري ميلغرام هذه التجربة، قام باستطلاع رأي عدد من الطلبة والأطباء النفسانيين، في نسبة المعلمين الذين سيستمرون في توجيه الصعقات الكهربائية ذات الفولتية العالية، فأجاب الجميع ان ١٪ منهم سيستمرون.

من اجل ان يبرهن صاحب التجربة للمعلم على ان الصعقة حقيقية، كان يجلسه في كرسي التلميذ ويسأله سؤالاً اختبارياً ثم يوجه اليه صعقة كهربائية خفيفة، قبل أن تبدأ التجربة.

حينما بدأت التجربة، اخذ المعلم يرفع مديات الفولتيات شيئاً فشيئاً. وحينما كان يصل الى الفولتية رقم (٣٠٠)، كان التلميذ يضرب الجدار بقبضته وتتصاعد منه صيحات الاعتراض والألم، من دون ان تؤثر تلك الصيحات على قرار المعلم. وحينما كان المعلم يوجه الصعقة ذات الـ(٤٥٠) فولت، تخمد انفاس الطالب ولا يصدر منه اي صوت. وكان كلما تردد المعلم في توجيه الصعقة، يأمره صاحب التجربة بلهجة حازمة: استمر رجاءاً فأنت قد

تقاضيت النقود لهذا الغرض!

النتائج التي تم الحصول عليها من خلال هذه التجربة مذهلة:

١ ـ لم يتوقف أي معلم عن الصعق قبل الصعقة (٣٠٠) فولت التي يضرب معها الطالب الجدار بقبضته. اي ان ١٠٠٪ منهم استمروا حتى الفولتية ٣٠٠.

٢ ـ توقف ٨ أشخاص فقط خلال الفولتية ٣١٥ ـ ٣٦٠. اي ان ٨٠٪ استمروا حتى الفولتية ٣٦٠.

٣ ـ توقف شخص واحد فقط عند الفولتية ٣٧٥.

٤ ـ استمر ٢٦ شخصاً من مجموع ٤٠ شخصاً حتى الفولتية ٤٥٠، وهو ما يعادل ٦٥٪ من المشاركين في التجربة.

من الجدير بالذكر انّ التلميذ الذي كان يتعرض للفولتية، لم يكن يتعرض لها حقاً، وكان مدرَّباً من قبل صاحب التجربة على القيام ببعض ردود الافعال، لكنّ المعلم لم يكن يعلم بهذه الحقيقة، ويتصور انّ تلك الفولتيات العالية حقيقية، سيما وانه قد جرب الخفيفة منها بنفسه.

كرر ميلغرام هذه التجربة بطريقة اخرى. فحينما كان الضحية (التلميذ) في الغرفة المجاورة، كانت نسبة الطاعة كما رأينا أعلاه، ولكن حينما وُضِع الاثنان ـ اي التلميذ والمعلم ـ في غرفة واحدة، وكانت أصوات الاستغاثة والاعتراض تتصاعد من التلميذ على مرأى ومسمع المعلم الموجّه للصعقة الكهربائية، كانت نسبة الطاعة الى مستوى موت الضحية، ٤٠٪. فتكشف هذه التجربة انّ حضور

الضحية أمام الشخص الصاعق، يقلل من مستوى الطاعة من ٦٥٪ الى ٤٠٪، غير انّ هذا الرقم الأخير يبقى رقماً مرعباً ايضاً.

وكشفت التجربة ايضاً عن انّ حضور الموجِّه للأوامر في مسرح الحدث، يؤدي الى زيادة نسبة الطاعة. وينتهي ميلغرام من هذه التجربة الى النتيجة التالية وهي انه يوجد في باطن كل منا انسان خفي مستعد لتوجيه ضربة لأبناء نوعه. وتكشف هذه البحوث كيف ينصاع الأفراد للأوامر حتى لو كانت بقتل ابناء نوعهم وجلدتهم. والأمر الجدير بالملاحظة هو انّ المعلمين الذين قاموا بهذه التجربة، عادوا الى رشدهم بعيد تلك التجربة وباتوا يعانون من تأنيب الضمير(١٩).

شدة الفولتية				
صعقة بسيطة	١٥	٣٠	٤٥	٦٠
صعقة متوسطة	٧٥	٩٠	١٠٥	١٢٠
صعقة قوية	١٣٥	١٥٠	١٦٥	١٨٠
صعقة قوية جداً	١٩٥	٢١٠	٢٢٥	٢٤٠
صعقة شديدة	٢٥٥	٢٧٠	٢٨٥	٣٠٠
صعقة شديدة جداً	٣١٥	٣٣٠	٣٤٥	٣٦٠
صعقة خطرة	٣٧٥	٣٩٠	٤٠٥	٤٢٠
	٤٣٥	٤٥٠		

٨ ـ الناس وكما قال الإمام الحسين عليه السلام «عبيد الدنيا». والأمر المهم هو انّ معظم الناس لا يعيشون عقائدياً، وانما يتطبعون على العقيدة والدين كتقليد وعادة اجتماعية متوارثة. اي انهم يفتقدون الى الوعي العميق، ولا يتميزون بالتزامات الانتخاب. فهم يريدون ان يعيشوا حياتهم بشكل عادي جداً و ان يكونوا على ادنى حد من حيث القضايا الاعتقادية. انهم يرغبون في الدين الى الحد الذي ينظّم لهم حياتهم، لكنّ عدد المتدينين يقل كثيراً حينما يخضعون للتجربة والامتحان. فيكفي هذا النمط من الناس ان يدّعي الحكام الاسلام، وأن يرتقوا المنبر ويصلّوا على النبي صلى الله عليه وآله. فكان يزيد وعبيد الله بن زياد، يرتقيان المنبر ايضاً، ويصليان على النبي صلى الله عليه وآله، لكنهما كانا من على هذا المنبر، يحرضان الناس على قتل سبط الرسول صلى الله عليه وآله. فالناس يحكمون على ظاهر الامور عادة نظراً لاستغراقهم في مستنقع الحياة اليومية. اي انهم لا يبحثون عن تفاصيل الامور وتعقيدات السياسات، وليس لديهم الفراغ لقضايا من هذا القبيل، بل لا يشعرون في انفسهم بأية حاجة اليها، مع الحياة العادية التي لديهم. ولا يداخلهم تفكير في انّ مصيرهم والمجتمع الذي يعيشون فيه، يعتمد على متابعة هذه الأمور.

لدينا صورة معكوسة تماماً، فنتصور الثورات والحركات الاجتماعية التي يتجلى فيها الحضور الواسع للشعب، انها جزء من الاحداث النادرة والاستثنائية، حتى انّ بعض الباحثين يتصور ـ من دون الالتفات الى قانونية حدوث هذه الثورات والحركات ـ ان هذه

الثورات امور غير عادية نظراً لندرتها.

في جميع الثورات والحركات الاجتماعية، لا يشارك جميع بل ولا حتى معظم الشعب، بل هناك بالأساس أقلية ثورية مؤمنة، ومتنظّمة، وتؤدي الى حدوث التغيير. وتبدأ نقطة التغيير النوعي للحركة، حينما تلتحق بها الجماهير عندما تتصدّع ماكنة السلطة وتقل او تنعدم حالة تعرض النفس او المال للخطر، فيتغير توازن القوى لصالح الحركة، وتحدث حالة التعبئة العامة.

حتى في هذه اللحظة، تنهار حالة التعبئة الجماهيرية حينما تواجه الحركة او الثورة خطراً جدياً وحقيقياً، وتنتقل الجماهير حينذاك الى موقع التفرج ومراقبة الأحداث. وهذا ما يمكن ان يفسر لنا لماذا انحسر كل ذلك السيل الجماهيري الموالي للإمام الحسين عليه السلام والذي نجح في تطويق قصر عبيد الله بن زياد، بمجرد ان شعر بوجود خطر جاد يتهدده.

تعد «العتبة العملية»، أهم مراحل اتخاذ القرار، والحركة، والتقويم، إنْ على صعيد العمل الفردي وإنْ على صعيد العمل الجماعي. ففي الحروب طالما يتطوع الكثيرون للاشتراك فيها والزحف نحو جبهات القتال، ولكن بما انهم سوف لن يتعاملوا هناك مع الشعار والعاطفة، بل مع العمل والحقائق العينية، كالموت، والعنف، والجروح، والمشاق، وغيرها، فسيستولي عليهم الشك والتردد.

يكشف بنو آدم عن جوهرهم وحقيقتهم، عند العتبة العملية،

وفي مختبر التمحيص والابتلاء. بل قد يقع الانسان في واد لم يتصوره من قبل ايضاً. وعند هذه العتبة، وفي هذا المختبر، تصمد الأقلية الوفية المؤمنة. وكان الإمام الحسين على علم بهذه الحقيقة، لذلك ألقى خطبة في ليلة عاشوراء خيّر فيها انصاره والذين تطوعوا في الخروج معه، بين البقاء معه والى جانبه، وبين الانسحاب عنه تحت جنح الظلام والنجاة من القتل، فتخلى عنه الكثيرون، وأصر على البقاء معه القليلون، وهم الفئة المخلصة الصادقة.

يصدق هذا الكلام على جميع الحروب، والثورات، والمجتمعات الانسانية، وتشهد التجربة التاريخية على ذلك، كما انّ الأفعال
الانسانية، وتشهد التجربة التاريخية على ذلك، كما انّ الأفعال
الانسانية، واحدة ومتشابهة امام جميع الظواهر المذكورة. فاذا نظرنا وفق هذه الرؤية الى الإمام الحسين عليه السلام وعدول الناس عن بيعته، لاتضحت لنا حقيقة الأمر. فمعظم الناس يفضلون حياتهم على اي شيء آخر. وما أقلّ اولئك الذين يقدّمون العقيدة على الحياة، وهذه هي نفس الرسالة التي كان يلهج بها الإمام الحسين عليه السلام: «انّ الحياة عقيدة وجهاد». فأولئك الذين يضعون الحياة بموازاة العقيدة، يصابون بالتعارض في ميدان الابتلاء والتمحيص.

٩ـ لم يكن يتصور بعض أهل الكوفة انّ ذلك الحدث سينتهي الى مثل تلك النهاية المأساوية. فكانوا يتصورون انّ الفتنة ستخمد حينما ينسحبون، وبعدها ينتظرون فرصة اخرى من اجل النهوض ثانية، كما انّ الإمام سيعود الى ارضه. غير انّ هؤلاء السذّج

يتجاهلون انّ يزيداً كان يصرّ على أحد أمرين: إما بيعة الإمام الحسين عليه السلام، أو رأسه. والدليل على جهل الناس او عدم تصورهم لتلك النتيجة هو حالة الندم التي عمّت الكوفيين بعد مقتل الإمام الحسين عليه السلام، وثورات التوابين، وثورة المختار بن عبيدة الثقفي الذي أطاح بحكومة الكوفة، وألقى القبض على جميع الذين اشتركوا في فاجعة عاشوراء وارتكبوا الجرائم بحق الحسين وأهل بيته وأنصاره، واقتص منهم بأبشع صور القصاص التي منها بقر بطون البعض، او القاؤهم في قدور تغلي بالزيت، او دقّ ايديهم وأرجلهم بالأرض.

لقد شعر الجيش الكوفي الذي حارب الحسين، بتأنيب الضمير بمجرد ان قُتل الإمام عليه السلام، وأخذ بعضهم يلوم البعض الآخر. وحينما جيئ بأسرى كربلاء الى الكوفة، وأخذت زينب عليها السلام تخاطب أهلها وتلومهم على ما فعلوه بأخيها وأهل بيته، ادرك الجميع بشاعة الموقف الذي اتخذوه، وعظم الجريرة التي ارتكبوها، وبات كل منهم يقرّع نفسه ويوبخها. لذلك كان البكاء هو السلاح الوحيد الذي بقي في يد الكوفيين، لكنّ زينب كانت تقول لهم:

«يا أهل الختل والغدر، أتبكون؟! فلا رقأت الدمعة، ولا هدأت الرنّة... أتبكون وتنتحبون؟! اي والله، فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً، فلقد ذهبتم بعارها وشنارها...».

١٠ ـ على ضوء التركيبة القبلية للمجتمعات العربية التي كانت تقتضي العصبية القبلية، وكذلك التنافس القبلي الذي ضعف في عهد

الرسول محمد ﷺ ثم أخذ يستعيد قوته بعد وفاته الى جانب العودة التدريجية لجزء من الثقافة الجاهلية، فلا شك في انّ بين اولئك الذين دعوا الحسين بن علي عليه السلام للكوفة، رجالاً كانت تخامرهم فكرة تحويل الكوفة الى عاصمة للدولة الاسلامية ومركز للعالم الاسلامي، ولم يكن الدين والعدل، دافعاً دفعهم لتوجيه تلك الدعوة. كما كان دافع البعض هو الشهرة والمنصب. وهؤلاء بالذات كانوا هم اول من تردد عند «العتبة العملية»، واول المتخاذلين عندما لاحت في الأفق علامات الخطر، لذلك كانوا سبباً ايضاً في بث اليأس والتخاذل والانكسار في سائر جمهور الثائرين.

١١ ـ ظاهرة النفاق، والانتهازية، ظاهرة يمكن مشاهدتها في جميع الثورات والانتفاضات والحركات الثورية. وحينما تفشل الثورة او الحركة نجد انّ بعض الانتهازيين ـومن اجل أن يبرئ نفسه من تهمة التعاون او الارتباط مع القوى الثورية المنكسرةـ يمارس اعمالاً اشد قسوة وأكثر تطرفاً من أعمال القوى الغالبة نفسها، فينحدر في التملق والانتهازية الى منحدرات عجيبة.

رأينا هذا اللون من التصرف لدى الكوفيين، لذلك انطلق الآلاف منهم بفعل التهديد والإرهاب، او لدفع سوء ظن الحكومة، او لمشاهدة النتيجة التي تنتهي اليها الأحداث، لحرب الحسين عليه السلام في كربلاء تحت إمرة عمر بن سعد، بينما لم تكن هناك حاجة لهذه الألوف المؤلفة والتي هي في معظمها مجموعات غير نظامية أُريد بها زعزعة معنويات انصار الإمام، ورفع معنويات الكوفيين

أنفسهم، وإظهار انّ الناس مع يزيد. ولربما كان ابن زياد يتصور انّ الإمام الحسين عليه السلام سيضطر لمبايعة يزيد حينما يشاهد ذلك العدد الهائل من الجنود الذين خرجوا لقتاله.

الجهلاء من الناس الذين لم يخرجوا مع ابن سعد، لقتل الإمام الحسين عليه السلام وانما بفعل الخوف من عواقب الامور، وبتأثير الضغوط الموجَّهة من قبل السلطة، لم يدركوا انهم يشاركون على الأقل في حرب نفسية موجَّهة ضد معسكر الإمام الحسين، رغم انّ الاخلاص الذي كان لدى هذا المعسكر جعله غير قابل للتزعزع. ويقول آية الله منتظري بهذا الشأن:

«لابد للإنسان ان يستاء ويغضب من الأعمال القبيحة المخالفة للشرع، ويبدي ارتياحه للأعمال الحميدة. فلو رضيتم بالأعمال القبيحة فأنتم جزء ممن ارتكبها، ولو عارضتم الأعمال القبيحة واستنكرتموها فأنتم جزء ممن تصدى لها، لهذا قال الإمام الحسين عليه السلام: «وإنما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمهم الله بالعذاب لما عمّوه بالرضا».

وطبقاً للنقل التاريخي، فانّ الذين زحفوا الى كربلاء كانوا نحو ثلاثين الف مقاتل، لكنهم لم يجردوا جميعاً سيوفهم لقتال الحسين عليه السلام، كما انّ الذين حزّ رأسه رجل واحد هو الشمر اللعين، لكننا نعتبر الجميع قتلةً للإمام الحسين عليه السلام، ونلعن جميع الذين خرجوا لقتاله، كما ان الله تعالى يعذب الجميع طبقاً للروايات الواردة، والسبب في ذلك هو انهم جميعاً كانوا موافقين على الاشتراك في

قتاله»[٢٠].

رغم تكرر القول التالي وهو انّ الناس الذين دعوا الإمام الحسين ﷺ، قد تحولوا الى جيش خرج لقتاله، والقوات التي كان من المقرر ان تقاتل دونه وبين يديه، قد تحولت الى قوات تقاتله وتناصر أعداءه؛ ولكن من الذي يقول انّ الذين قاتلوا الإمام الحسين ﷺ، كانوا ممن كتب الى الإمام ودعاه؟ لذلك فانّ اعتبار جميع افراد جيش ابن زياد هم جميع او معظم اولئك الذين دعوا الإمام، يبعث على ظهور آراء عامة وغير صحيحة. وما يمكن قوله في هذا المجال هو انّ بعض اولئك الذين دعوا الإمام الحسين انطلاقاً من الدوافع التي أشرنا لها، كانوا جزءاً من جيش ابن زياد.

فضلاً عن النقاط اعلاه، من اجل ادراك عوامل وأسباب واقعة عاشوراء وصمت الناس، لابد من العودة الى الماضي.

١٢ ـ حينما فتح الرسول الاكرم ﷺ مكة، أسلم بعض المشركين خوفاً، فلم يحصل تغيير في شخصيتهم وفي جميع جوانب وشؤون حياتهم الاجتماعية. وقد اعلن الكثير من المكيين اسلامهم وفق منطق «الحق لمن غلب». والحرب الخارجية التي استمرت حتى عهد عمر بن الخطاب الذي دام عشرة اعوام، عملت على اتحاد المسلمين، غير انّ ثقافة عصر ما قبل الاسلام والطبائع الجاهلية، لم يتم استئصالها، بل ظلت الثقافة الجاهلية كالنار تحت الرماد في مرحلة غليان المشاعر الثورية. لذلك كان يوجد لدى

المسلمين الاستعداد للعودة الى قيم النظام الذي سبق الاسلام*.

بمجرد ان توفي الرسول محمد ﷺ وفيما لا زال جثمانه مسجىً على الأرض أثارت قريش موضوع خلافتها للرسول ﷺ على أساس انها أفضل من غيرها. غير انّ هذا الولاء للقبيلة والعصبية القبلية، ظاهرة غير سليمة دفعت في نهاية المطاف وبعد حوالى ٥٠ عاماً بيزيد بن معاوية الى قتل الإمام الحسين عليه السلام ـ حفيد رسول الله ﷺ ـ ثأراً لقتلى بدر، بينما كان يخطب بإسم جده.

١٣ ـ معظم المسلمين الذين كانوا يعيشون في الجزيرة العربية عام ٦١هـ، وُلدوا في نهاية خلافة عمر بن الخطاب، وترعرعوا في عهد عثمان بن عفان، ودخلوا الى المجتمع في بداية عهد معاوية بن ابي سفيان. فالأفراد الذين كان عمرهم خمسين عاماً لم يشاهدوا الرسول ﷺ، والذين كان عمرهم ستين عاماً كان عمرهم عشر سنوات حين وفاته ﷺ، ولم يبق في هذا العام ـ اي عام ٦١هـ ـ ممن رأى رسول الله ﷺ سوى أفراد يعدون بالأصابع، كانوا

---

* ـ بعد انتصار الثورة الاسلامية في ايران، وفيما اخذت القيم الثورية الغالبة ترفض القيم الغربية وتعارض معايير الثقافة الغربية، وتعتبر الارستقراطية والاسترخاء منقصةً، فبما انّ الثقافة الغربية كانت سارية ومتجذرة في أعماق المجتمع، لذلك ان البعض يتوقع انه لو خفّت حدة الجو الثوري نوعاً، وأُزيلت الضغوط الاجتماعية وحالة السيطرة والمراقبة، سنشاهد العودة الى القيم المنحطة للنظام السابق، سيما وانه لم يتم تدمير جميع القواعد القيمية، والاقتصادية والاجتماعية، للامبريالية الغربية في ايران.

موزعين على الكوفة، والمدينة، ومكة، ودمشق.

ابناء السبعين والثمانين، كانوا يفكرون بالاستعداد للسفر الاخروي قبل التفكير بأي عمل او نشاط حياتي. ورغم ان معظم المسلمين في عهد الرسول ﷺ، كانوا عقائديين وملتزمين، غير أنّ هذه الحالة لم تنتقل الى الأجيال اللاحقة. لذلك ما أنْ غاب الجيل الاسلامي الأول، وصحابة الرسول محمد ﷺ، حتى ادى انهماك المسلمين في حياتهم اليومية، والأساليب التي اتبعها الامويون، والميل الى الراحة والدعة الذي ظهر في عهد عثمان، الى اضعاف روح الايمان والعقيدة والأخوة الاسلامية عند الجيل الثاني من المسلمين.

النتائج التي توصل اليها كرين برينتون بشأن الجيلين الثاني والثالث للثورات من خلال المقارنة بين الثورات الكبرى في روسيا، والصين، وفرنسا، وانجلترا، تنطبق تماماً مع ما قيل بشأن الجيلين الثاني والثالث لثورة الرسول محمد ﷺ (٢١). فعلى ضوء انّ معظم نفوس الحجاز والعراق كانوا من الشباب، لذلك فالجيل الذي كان يعيش في زمن ثورة الإمام الحسين عليه السلام، قد جرّب عهد معاوية وأساليبه في الحكم، بينما كان الذين هم أكبر سناً، قد جرّبوا حكومة عثمان. اي انّ الجيل الذي شهد ثورة الإمام الحسين عليه السلام لم يجرب الحكومة الاسلامية في عهد الرسول محمد ﷺ وأبي بكر وعمر، ولم يذق طعم الاخوة الاسلامية. كما انّ الإمام علياً عليه السلام حينما سُلِّم اليه زمام الامور، واجه الكثير من المشاكل والحروب

والأزمات التي كانت تختلقها الأسرة الأموية.

منذ عام ٤٠هـ، وهو العام الذي استشهد فيه الامام علي عليه السلام وأمسك معاوية بمقاليد الأمور، هيمنت على العالم الاسلامي حكومة استبدادية استمرت ٢٠ عاماً. لذلك كانت حكومة معاوية تمثل النموذج الوحيد للحكومة الاسلامية الذي شاهده الشباب المسلم. اما اولئك المتبقون من الجيل الاول، فكانوا طاعنين في السن ويُعدّون بالأصابع. اما عامة الناس فقد تطبّعوا على الأوضاع التي أوجدها الامويون، وفقدوا حالة التحسس ازاء الانحرافات والممارسات غير المنسجمة مع روح الرسالة الاسلامية. اضف الى ذلك انّ تطاول الزمان قد ألقى غبار النسيان على خواطر الناس فنسى معظمهم الماضي، لذلك يقال: حجاب المعاصرة، من عوامل عدم ادراك الماضي(٢٢).

اولئك الذين دعوا الحسين عليه السلام ثم تخلوا عنه، كانت معرفتهم بالحسين عليه السلام وضروريات الزمان والكوارث التي حلت بالاسلام، معرفة بسيطة وظاهرية. فكانوا يعرفونه كحفيد للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ويستحق الاحترام والتبجيل، ككثير من المسلمين في عصرنا الذين لا يعرفون عنه سوى انه ابن الإمام علي عليه السلام وفاطمة عليها السلام، وحفيد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وانه قُتل على يد جيش يزيد بن معاوية قتلة فجيعة ومأساوية.

١٤ـ الكوفة لم تكن ذات خلفية تاريخية طويلة إذ أنها كانت في عام ١٧هـ معسكراً للقوات الاسلامية التي انطلقت لفتح ايران، ثم

تحولت الى مدينة مثل كثير من مدن العالم التي كانت معسكرات في بادئ الأمر. وبفضل الانتصارات التي حققها المسلمون في الشرق والموقع التجاري الذي كانت تتميز به الكوفة، اخذ يهاجر اليها المسلمون من شتى المدن والقبائل. لذلك لم تكن تتميز بحالة التلاحم والانسجام الاجتماعي الذي كانت تتميز به المدن آنذاك.

١٥ ـ منذ ظهور الرسول الأكرم محمد ﷺ وحتى نهاية عهد عثمان بن عفان، كان المسلمون يقاتلون الأجنبي. ولكن منذ مقتل عثمان بن عفان أخذ العالم الإسلامي يشهد قتالاً بين المسلم والمسلم. فقد خرج معاوية، وعائشة، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله على الإمام علي ؑ، فاندلعت بسبب ذلك حروب الجمل، وصفين، والنهروان، وقُتل الآلاف في هذه الحروب، لاسيما حرب النهروان التي شنّها الآلاف من الذين كانوا الى الأمس القريب في صفوف جيش الإمام علي ؑ ومن الذين عُرِفوا بكثرة العبادة والصلاة قبل ان يضلوا عن الطريق، ويفقدوا القابلية على التمييز بين الحق والباطل. وكان الجيل الثاني من المسلمين يشاهد عن كثب كيف كانت تدور رحى الحرب بين المسلمين أنفسهم وهم الذين لم تكن تدور في مخيلتهم إمكانية ان يقاتل المسلم أخاه المسلم. فكان ذلك كله تمهيداً لقتال الإمام الحسين ؑ وقتله في ظل ظروف خبا فيها بريق الاخوة الاسلامية بفعل تقادم الزمان، وتغيّر القيم، والحروب الأهلية.

١٦ ـ المبدأ المهم الذي لا يجب ان يبعد عن الأنظار هو انّ

الناس يتغيرون باستمرار، وانّ الإنسان الجديد ليس مثل الإنسان القديم، والإنسان الأجدد لا يمكن ان يكون عين الإنسان الجديد وهكذا. وفي ظل مثل هذه السياقات قد يسقط انسان ما من قمة الإيمان والاخلاص الى حضيض الكفر والخيانة، وقد يتسامى انسان آخر من مستنقع الرذيلة الى ذروة الفضيلة. ولا شك في انّ الناس ليسوا بمستوى واحد، حتى انه قد يكون أحد زعماء الثورة ورجالها، من اوائل الذين يتنصلون من الثورة وينتهكون مبادءَها وقيمها. ويمكن ان يكون معاوية بن ابن سفيان نموذجاً على مثل هذه الحالة في الإسلام، كما يمكن ان ينطبق هذا الأمر على طلحة والزبير وغيرهما.

الانسان يتغير لأنه يتأثر بالظروف والأوضاع. ومما لاشك فيه ان التغيير بحد ذاته، امر غير مذموم، بل هو مطلوب يقيناً إذا كان باتجاه التكامل. فاذا كان التعاون، والاخوة، والقيم العليا، امراً شائعاً في صدر الاسلام، ثم تغير كل ذلك بعد ٥٠ عاماً، فنحن نلاحظ هذا المنحى في جميع الثورات ايضاً. ونظراً لسياقات «التكيفية»[٢٣]، نرى كيف تتغير الثورات بعد ان يحل التنازع والتنافس والأنانية محل الاخوة والتضامن والتعاون. فلو قيل لجنود الثورة الفتية بأنكم ستكونون جنوداً في خدمة الاستبداد بعد عشرين عاماً او اكثر، فانهم يستنكرون مثل هذا القول، لكنهم في حقيقة الأمر سيتغيرون تدريجياً بتغير الظروف والذهنيات بوحي من عنصر «التكيفية»، لذلك نرى كيف زحف بعضهم مع القوات اليزيدية لحرب الحسين،

وكيف كان البعض الآخر صامتاً صمتاً مخزياً ومتفرجاً على مقاتلة الحسين وارتكاب تلك الجرائم البشعة بحقه وحق آل بيته وعياله.

اذن اين اضحى ذلك الجيل الذي حينما سقط العديد من افراده جرحى في إحدى غزوات الرسول محمد ﷺ، رفض كل جريح منهم تناول الماء قبل ان يشرب اخوه الجريح الآخر حتى ماتوا جميعاً دون أن يرتشف اي احد منهم ماءاً، ولماذا حل محله جيل آخر منع الماء عن الإمام الحسين عليه السلام وأبنائه، وساهم في قتلهم بتلك الطريقة التي لا تمحى صورتها من الأذهان؟

فقدان التعبئة الجماهيرية

يقول «اسملسر»، احد المنظّرين في علم اجتماع الثورات والحركات الاجتماعية: «اذا لم تتم تعبئة الجماهير، سيفقد الحماس الجماهيري بريقه مع اي حدث مفاجئ وغير مترقب، وتعيش الجماهير حالة الحيرة والاضطراب»[(٢٤)].

في بداية ثورة الإمام الحسين عليه السلام، كانت هناك بعض المقومات لحدوث حالة التعبئة. ففي أعقاب وفاة معاوية ظهر فراغ في السلطة، وبدا يزيد متزعزعاً، وأخذ حاجز الخوف بالانكسار. ورأى المعارضون الذين كانوا يتحينون مثل هذه الفرصة، انّ الاوضاع مناسبة للتحرك والخروج على السلطة الأموية.

لو كان الحسين عليه السلام قد استطاع الامساك بزمام الامور في الكوفة، لالتحق به اهل الحجاز، وايران، واليمن. وكان اهل البصرة

قد بعثوا اليه كتاباً يعلنون فيه عن استعدادهم للانضمام للثورة، واستطاعوا تعبئة بعض القوات والامكانات لنصرته. ولم يخالف ثورة الحسين عليه السلام جميع المسلمين الذين جربوا حكومة العدل العلوي. كما كان أبناء الخليفتين عمر وأبي بكر، جزءاً من المعارضين لمعاوية ويزيد.

اذا عرفنا هذا، إذن لماذا فشلت كل هذه الاستعدادات؟ قلنا انّ الخلل في الاتصال المستمر بين القيادة والقاعدة الجماهيرية الثائرة، وفقدان التنظيم، أمر جعل التحرك في الكوفة يواجه العديد من الصعوبات والإشكاليات، فيما كانت سائر المدن تراقب الاوضاع في الكوفة عن كثب، وتربط تحركها بالمصير الذي ستنتهي اليه الحركة في الكوفة. ولكن لو كانت إحدى هذه المدن ـ ولتكن البصرة مثلاً ـ قد تحركت على الفور ـ بدلاً من الانتظار والمراقبة ـ وانضمت الى الكوفة وزجّت بجميع قدراتها وإمكاناتها في هذا السبيل، لربما كانت الامور قد سارت مساراً آخر، وتغيرت وتيرة الأحداث لصالح الحسين عليه السلام وأنصاره.

ولاشك في انّ أي تحرك إذا لم ينتشر على وجه السرعة ويسمح للعدو بأن يناور ويركز قواه، فلابد ان يتعرض للقمع ويصبح احتمال انتصاره ضعيفاً جداً. لكنه لو انتشر واتسع على وجه السرعة، فلن يُصبح بمقدور قوات العدو تدارك الموقف، وتفقد زمام السيطرة على الاوضاع. ولا ريب في ان تحقيق النصر في الموضع الأول من المواجهة، سيؤدي الى اتساع التحرك بشكل سريع، وتظهر حالة من

التلاحم بين شتى مراكز التحرك التي تعمل على تعزيز مطرد له.

مما سبق ندرك انّ حركة الكوفة قد قُبرت في مهدها نظراً لعدم انتشارها واتساعها. ورغم اندلاع ثورات عديدة في اعقاب فاجعة عاشوراء، لكنّ الحسين ﷺ الذي يمثل زعيم الثورة ومحور وحدتها واتساعها، كان قد استُشهد قبل ذلك.

هل ثورة الحسين ﷺ، عقلانية أم غير عقلانية؟

طالما يسأل علماء الاجتماع عن عقلانية او لا عقلانية[٢٥] الحركات الاجتماعية والسلوكيات الجماعية. ونحن نستخدم هذا السؤال هنا بمعنى العقلانية في مقابل «نظرية السراية»، وكذلك بمعنى دقة وصحة قرارات وحسابات زعيم الحركة او الثورة.

«قد تكون الحركة الجماعية (التمرد او الثورة)، عقلانية او غير عقلانية، وهذا يعتمد على رؤية الشخص الذي ينظر اليها. فالتمرد بالنسبة للفقراء الغاضبين على اوضاعهم، شيء عقلاني لفهم شكاواهم. لكنه فوضى في عين صاحب الحانوت الذي انحبس في حانوته والناس يرجمون زجاج حانوته بالحجارة»[٢٦].

يُعدّ «بلومر» و «غوستاف لوبون»، من بين المفكرين الذين يعتبرون السلوك الجمعي، غير عقلاني، ويصفون غليان المشاعر، والذهن الجمعي، وذوبان الفردية، والتلقينية، اموراً مؤقتة وعابرة وغير عقلانية. «ومن الانتقادات الموجهة الى «اسملسر» انه يؤكد بشكل متطرف على وجود المعتقدات غير العقلانية للحركة ويقول

بأنّ التذمرات والشكاوى الحقيقية والحسابات العقلانية، لا تلعب اي دور في التعبئة الجماعية»[٢٧].

ما يستحق الاهتمام هو:

١ـ تكشف الدراسات عن انّ المتمردين او الثائرين لا يهاجمون الحوانيت جميعاً وانما يهاجمون بعضها لبعض الأسباب والاعتبارات، وقد تتضرر بعض الأمكنة في بعض الاحوال النادرة.

٢ـ القضية المهمة التي لم تؤخذ بنظر الاعتبار هي انه قد يكون زعيم الحركة او الثورة عقلانياً، بينما تبتعد الجماهير الغاضبة المتمردة عن الحسابات العقلانية. وسبق ان ذكرنا ان تنحي اهل الكوفة عن التحرك الثوري، ينم عن نوع من الحسابات والتفكير، فضلاً عن تأثير عدم وجود التنظيم، وعدم عمق التفكير. فالناس يكونون حسابيين عادةً الى جانب غليان المشاعر، غير انّ هذا الحساب قد ينتهي بعد ذلك لصالح او ضرر الحركة. فقد لا يخرج المحاسبون في حساباتهم الى افق أبعد مما حولهم.

٣ـ مثلما تنظر الجماهير في ذروة الحماس بعضها الى بعض، ويؤثر بعضها تأثيراً ايجابياً على البعض الآخر، ويشحن بعضها بعضاً، كذلك ينظر بعضها الى البعض الآخر في حالة النكوص وانحسار الحماس، فيؤثر بعضها في البعض الآخر تأثيراً سلبياً، مما يسرّع في عملية زوال الحركة وانقضائها. وتعتمد هذه الحركة العكسية على شدة العامل المضاد للحماس والاهتياج ومدى تأثر الجماهير به.

وفي عقلانية ثورة الإمام الحسين ﷺ يمكن القول انه لو اجتمع العقلاء في كل زمان ووضعوا أنفسهم موضع الإمام الحسين ﷺ والظروف التي كانت سائدة في أيامه، وطُلب منهم ان يتخذوا اي قرار يشاءون بكل حرية وشهامة، فانهم لن يتخذوا سوى القرار الذي اتخذه الإمام الحسين ﷺ عام ٦١هـ. ورغم انّ هذا الكلام لا يخرج عن نطاق النظرية، غير انّ الدراسة الدقيقة للثورة وظروفها وعناصرها، تؤيد ذلك تماماً. فمن وجهة نظر السياسي المحنك، تعد جميع تصرفات الإمام حكيمة وعقلانية وعميقة.

على ضوء ما تقدم من بحوث لاسيما في موضوع المعارضة، انّ اذكى موقف كان يمكن ان يتخذه الإمام الحسين ﷺ في تلك الفترة العصيبة التي كان فيها الاستبداد يبحث عن ذريعة للقضاء على آخر آمال الأمة، هو الصمت. فالخدمة الافضل التي كان بامكان الحسين ﷺ ان يقدمها هو السعي لحفظ نفسه، غير انّ الأحداث التي وقعت فيما بعد كشفت ان حفظ النفس لا يمكن ان يتم بأية قيمة كانت.

حينما توفي معاوية فجأة، كان يزيد يعلم انّ الأمة ستتجرأ على معارضته، لذلك طلب من الإمام الحسين ﷺ اما ان يبايع وإما ان يموت. وسعى الإمام لتأخير المواجهة الى حين استكمال المقومات، فخرج من المدينة المنورة مسرعاً. وحينما وفدت عليه الرسائل والدعوات من مشاهير الكوفة وشخصياتها ووجوهها الشعبية، لم يسارع الى اتخاذ اي موقف، واتخذ جانب الحيطة والحذر، فبعث موفداً عنه الى الكوفة كي يطّلع على الأوضاع عن

كتب خوفاً من ان تكون هناك مؤامرة او دسيسة، ولكي يكون على بصيرة من أمره في اية خطوة يخطوها باتجاه الثورة على النظام المنحرف عن الاسلام.

بالرغم من جميع التدابير الذكية والعقلانية التي اتخذها الإمام الحسين عليه السلام، ورغم انتهازه لجميع الفرص واللحظات، الّا انّ الثورة التي فجرها انتهت الى المأساة العاشورائية التي أدمت القلوب جميعاً وأبكت العيون جميعاً، لأنّ الحركة الاجتماعية وإن كان بالامكان التكهن بها ووضع التدابير اللازمة لها، ولكن نظراً للتعقيد الذي يتسم به الحدث الاجتماعي والموجود الانساني، ونظراً لتدخل العديد من العناصر النفسية والثقافية والتاريخية، فلن يتميز ذلك التكهن بالدقة الرياضية، ويبقى احتمال انعكاس مسار الاحداث، قائماً. غير انّ هذا الاحتمال لا يلغي التكليف والواجب قط. فتوافر الأسباب والعوامل والمحاسبات الصحيحة، تحتم العمل والتحرك والانطلاق. فكان هدف الإمام الحسين عليه السلام من ثورته هو تأسيس حكومة اسلامية، ولم تكن احترافاً سياسياً[٢٨].

اذا لم يكن هدف الإمام تأسيس حكومة العدل، فماذا كان هدفه؟ ولا معنى كذلك للقول بأنه قد خرج من أجل ان يُقتل، لأنه سعى حتى اللحظات الأخيرة لتجنب الحرب وتحين فرص جديدة. والشيء الوحيد الذي يمكن قوله هو: اذا كان الحسين عليه السلام على علم بأنه لا يمكن الاعتماد على وعود الناس وعهودهم وتأسيس

حكومة في الكوفة*، ولكن لو فرضنا انّ الأمر كان كذلك حقاً، فلابد ان يكون ملزماً بتلبية دعوة الامة. والحسين ـ طبقاً لهذا الرأي ـ يكون قد عمل بما يمليه عليه التكليف الشرعي والمسؤولية الإلهية، ولم يكن يفكر في النتيجة، ولم يكن بمقدوره ان يرفض دعوة الكوفيين لمجرد انه يعلم النتيجة، سيما وانّ مثل هذا الموقف سيدفعهم ويدفع غيرهم الى استنباط عدم العمل بالتكليف عند اللزوم.

تشهد كلمات الإمام عليه السلام وأعماله ومواقفه منذ بداية الأحداث وحتى نهايتها على انه اتخذ التدابير اللازمة ووضع جميع الاحتمالات الممكنة نصب عينه، وانه قد اختار الشهادة كحربة اخيرة لمجابهة الهزيمة المحتملة. كما كان على علم بنتائج ومعطيات الاستشهاد، حتى انه حذّرهم من سوء العاقبة والنتائج الوخيمة التي سيجنونها لو سفكوا دمه الطاهر.

ويمكن القول:

١ ـ لو كانت أرضية الثورة غير معدَّة، لما كان بمقدور الإمام الحسين عليه السلام ان يثور، ولهاجر الى اليمن او اي بلد آمن آخر للتخلص من مبايعة يزيد.

٢ ـ لو كانت ارضية الثورة معدَّة، فالنتيجة لابد ان تكون إما

---

* ـ طبعاً لا يمكن استنباط هذا الادعاء من الوثائق الموجودة وكلمات الإمام الحسين (ع) المتوفرة.

النصر او الانكسار. ولم يخرج تدبير الإمام عن إحدى هاتين الحالتين: الاولى، لو انتصرت الثورة فسيؤدي ذلك الى إحياء الحكم الاسلامي، وعودة المجتمع الاسلامي المنحرف الى الطريق القويم، وزوال -او على الأقل تقليص- الاختلافات الدينية بين المسلمين التي بدأت بالظهور منذ أحداث السقيفة. اما اذا انكسرت الثورة، فيمكن ان يشكل استشهاد ابن الرسول ﷺ، افضع انواع الفضائح للأسرة الاموية. وقد حدث هذا الأمر بالفعل، فرأينا كيف اخذ الناس -بل وحتى الكثير من الشخصيات الحكومية- يبكون ندماً لأنهم تخلوا عن الحسين عليه السلام وتركوه وحيداً في ساحة المعركة، ونجم عن ذلك نشوب العديد من الثورات التي ترفع شعار الثأر للإمام الحسين عليه السلام، ثم رأينا كيف تقوّضت اركان الدولة الاموية في نهاية المطاف. ولازالت ملحمة عاشوراء خالدة الى يومنا هذا تستحث الهمم وتثير الحماس في النفوس من اجل الانتفاض على الواقع الفاسد.

لقد رأى الإمام الحسين عليه السلام جميع الطرق مغلقة، لكنه بدلاً من الاستسلام والخنوع، اختار الاستشهاد والقتل في سبيل الله دفاعاً عن المبدأ والعقيدة غير خائف من الموت إذ كان يقول: «خُطَّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة»، ولذلك أعلنها بقوة وصراحة «اني لا أرى الموت إلّا سعادة، والحياة مع الظالمين إلّا برما». لكنّ عقلانيته كانت تستوجب منه ان يدفع اختيار الحرب، لذلك ظل الى اللحظات الأخيرة يفاوض من اجل السلام

وتجنب القتال. وهذا ما يشير الى انه لم يطلب الموت، وكانت الحرب والاستشهاد، الحربة الاخيرة التي استخدمها في مواجهة العدو. وعلى هذا الأساس يمكن القول ايضاً بأنّ اختيار الإمام الحسين للموت كحربة اخيرة، كان عقلانياً ايضاً.

المراحل التي استطاع الإمام الحسين عليه السلام قطعها كالتالي:

أ ـ الحيلولة دون فرض موعد مبكر على الثورة، وتحديد وقت الثورة بعد توافر الظروف والمقومات.

ب ـ إنجاح الثورة بأقل ما يمكن من الخسائر الإنسانية والمادية.

ج ـ تقديم الخسائر المادية على الخسائر البشرية، عند الضرورة.

د ـ الاستعانة بالمفاوضات واسلوب الحوار لتجنب الاشتباك المسلح، وتحيّن فرصة أخرى لخوض غمار مواجهة اخرى مع العدو.

هـ ـ اتباع اسلوب النصح والارشاد مع قوات العدو وجنوده عند فشل اسلوب الحوار والتفاوض، وإتمام الحجة عليهم من اجل فصل العناصر الخيرة حتى ولو كانت قليلة، مع القيام بحرب نفسية لزعزعة تلك القوات.

و ـ اختيار الحرب حينما يدور الأمر بين الاستسلام او الحرب، ولا شك في ان الحرب تنتهي اما الى الانتصار، او الاستشهاد.

من الأدلة الاخرى على عقلانية ثورة الإمام، هي تجنب الإمام

للحرب في ظل الظروف التي كان فيها مؤشر القوة يتجه لصالح العدو. فحينما حوصرت قوات الإمام عليه السلام من قبل قوات العدو بقيادة الحر بن يزيد الرياحي، قال لهم الإمام انه قد جاء اليهم تلبية لدعوتهم، وسألهم ان يسمحوا له بالعودة من حيث أتى، فلم يسمح له الحر بذلك وقال له: «إني أُمرت ان أُقدمك الكوفة».

لقد وجد الإمام نفسه أمام جيش جرار مدجج بالسلاح في مقابل فئة قليلة مع انصاره وأهل بيته، كما انه لا يمكنه ان يبايع الحكم الاموي اللا شرعي ويعترف بيزيد بن معاوية خليفة على المسلمين، كما أُغلق بوجهه طريق العودة وتجنب القتال، لذلك كان لابد ان تقع واقعة عاشوراء الفجيعة.

الهوامش

١ ـ ثورة الإمام الحسين (ع) (مختارات من كتاب الفتوح)، ابن أعثم الكوفي (ت ٣١٤هـ)، شركة النشر العلمية والثقافية، ص ١.

٢ ـ نفس المصدر، ص ٥.

٣ ـ الشهادة، للدكتور علي شريعتي.

4. Sociology, Michael Bassis _ Richard J. Gelles, rr. 197_198.

٥ ـ الشهيد الخالد، صالحي نجف أبادي، ص ٧٣ ـ ٧٥.

6. Sociology, r. 191.

٧ ـ الفتوح، ص ٥٤؛ الشهيد الخالد، ص ٢٣٩.

٨ ـ الفتوح، ص ٥٤؛ الشهيد الخالد، ص ٢٣٧.

٩ ـ الفتوح، ص ٣٧ ـ ٣٨؛ الملهوف على قتلى الطفوف، السيد ابن طاووس (ت ٦٦٤هـ)، دار الاسوة للطباعة، ص ١١٩٠.

١٠ ـ الشهيد الخالد، ص ٧٧ ـ ٧٨.

١١ ـ شرح نهج البلاغة، آية الله منتظري، الخطبة ٢٩.

١٢ ـ نفس المصدر، الخطبة ٢٥.

١٣ ـ نفس المصدر، الخطبة ١٩٢.

١٤ ـ الملهوف على قتلى الطفوف، ص ١٠٣؛ الفتوح، ص ٢٠ ـ ٢١.

١٥ ـ تحف العقول، بجهود علي أكبر غفاري، مؤسسة النشر الاسلامي لجماعة المدرسين، ط ٢، ١٩٨٤، ص ٢٤٥.

١٦ ـ شرح نهج البلاغة، آية الله منتظري.

١٧ ـ قيام الحسين (ع)، السيد جعفر شهيدي، مكتب نشر الثقافة الاسلامية، ص ١٠٢.

١٨ ـ الفتوح، ص ٦٤ ـ ٧٥.

١٩ ـ علم النفس الاجتماعي، الدكتور يوسف كريمي، اصدارات جامعة رسالة النور، ط ٢، ١٩٩١، ص ١٤٤ ـ ١٥٧.

٢٠ ـ شرح نهج البلاغة، سابق.

٢١ ـ تشريح أربع ثورات، كرين برينتون، ترجمة محسن ثلاثي، ط ١.

٢٢ ـ مقدمة على تدوين تاريخ الثورة الاسلامية، إصدارات مزامير، ط ١، ١٩٩٧.

٢٣ ـ لنا محاضرة في هذا الموضوع تحت عنوان «ازدهار الثقافة وانحطاطها»، القيناها في الجمعية الاسلامية لجامعة تربية المعلم عام ١٩٩١.

24. Sociology, p. 187.

25. Rational or Irrational

26. Ibid, p. 188.

27. Ibid, p. 187.

٢٨ ـ قيام الحسين (ع)، السيد جعفر شهيدي، ص ١١٩. مؤلف هذا الكتاب يعتبر طلب الحكم، سياسة احترافية، وأمراً غير مطلوب.

تأثيرات عاشوراء وإفرازاتها

مقدمة

حظيت عاشوراء منذ قرون متمادية باهتمام البحوث والدراسات الكلامية غالباً والتاريخية نادراً، لكنها لم تُبحث وتناقش من زاويتي «نظرية المعرفة»، و «علم الاجتماع».

بصرف النظر عن الحادثة التي وقعت في كربلاء عام ٦١هـ وكانت مصدراً لسلسلة من المراسم والنشاطات على مدى ١٤ قرناً من حياة مذهب أهل البيت عليهم السلام، وبغض النظر عن السجالات والمناظرات التاريخية والعقائدية الخاصة بأصل الحدث، ننبري في هذا المقال لتسليط الضوء على آثار وإفرازات ومكتسبات عاشوراء، اي سلسلة المراسم والفعاليات التي تشهدها المجتمعات الموالية لأهل البيت عليهم السلام والمنتمية اليهم.

عاشوراء واقعة شهدها العالم الاسلامي خلال عام ٦١هـ،

وتحولت بفضل الاخلاص الذي لا سابقة له، سواء في عموميتها او في عناصرها، الى اكثر الأحداث التاريخية خلوداً، وأصبحت مصدراً لسلسلة من الحوادث والتحركات في ايران. ولا شك في انّ بقاء أي نظام فكري وسلوكي، يعتمد على آثاره ونتائجه، ولا شك كذلك في انّ استمرار الأثر يعتمد على ما يتميز به من مصلحة عملية وعلى اهمية الدور الذي يلعبه في حياة الإنسان، غير انّ هذا الأمن بالذات لم يستقطب ـ للأسف ـ اهتمام الدراسات والبحوث الى اليوم، رغم كثرتها.

يكفي في تبيان أهمية عاشوراء القول أننا لو اقتطعنا عاشوراء ومراسمها والمناسك الشبيهة بها عن المذهب الإيراني، لأصبح هذا المذهب ذا وجه ومحتوى متباين تماماً عما هو عليه.

العوامل والتأثيرات

رغم انّ الأفراد حينما يصلون الى مرحلة البلوغ العقلي، يتحقق لهم نوع من الارادة والاستقلال في إطار المجتمع، وقد يُداخلهم الشك أحياناً ازاء الأفكار والعقائد التي لديهم من قبل، لكنّ العقائد والمراسم والمناسك هي بشكل عام عبارة عن قيم تُفرض على الأفراد من قبل المجتمع باعتباره قوة مؤثرة. ويضع علماء الاجتماع الدين والعقائد الدينية ضمن خمسة عوامل اساسية مؤثرة في المجتمع:

١ ـ الاقتصاد؛ ٢ ـ الدين؛ ٣ ـ السياسة؛ ٤ ـ الأسرة؛ ٥ ـ التربية

والتعليم. وهناك من يضيف «الاتصالات» كعامل سادس ايضاً.

الدين أحد العوامل الأساسية في المجتمع، ولديه بعض المهام والأفعال المهمة، ويعكس الكثير من الآثار والنتائج الايجابية الضرورية على حياة الفرد والمجتمع. ويُعدّ العالم الاجتماعي «روبرت مارتين»، اول من قال بوجود نوعين من التأثيرات لكل نظام أو حدث: تأثيرات ظاهرة، وتأثيرات خفية. فالتأثيرات الظاهرة ذات اهداف واضحة وجلية ولا يحتاج تأييد وجودها الى بحث وتقص، وتُعدّ جزءاً من الأهداف الأساسية للنظام او المؤسسة او الحدث. اما التأثيرات الخفية فتدل على النتائج اللا مرئية وغير العمدية وغير المتوقعة للنظام او الحدث، والتي لم يكن هناك تخطيط مسبق للتوصل اليها. فعلى سبيل المثال، فالتأثير الظاهر للنظام التعليمي هو التعليم والتربية، والتأثير الخفي لهذا النظام هو استقطاب الكثير من الشباب للعمل وتأخير أزمة البطالة.

تأثيرات عاشوراء الظاهرة

ايجاد التضامن

يتولى الدين -في المجتمع التقليدي- والنظام القانوني -في النظام الصناعي العصري- مهمة ايجاد التضامن والانسجام بين افراد المجتمع والفصائل الاجتماعية. ومن مهام عامل الدين: تحقيق

الثبات الأخلاقـي في المجتمع، ومـراقـبـة قـيم الثـقافة العـامـة، وتنظيم القواعد والقوانين الاجتماعية. لكنّ الدين ليس على وتيرة واحدة من حيث التأثير، ويضعف ويقوى بـاختلاف المـجتمعات. والحقيقة هي ان مراسم تكريم واقعة عاشوراء بين ابـناء المـذهب الشيعي وأتباع أهل البيت عليهم السلام، ليست عـاملاً لايـجاد التـضامن وخلـق التلاحم وانما تعبِّر عـن هذا التضامن وتترجمه على صعيد الواقـع.

الاقتداء والتأسي

الآثار التـي يـتحدث عـنها الخـطباء والمـحاضرون لعـاشوراء ومراسم هذا الحدث، ترتبط عموماً بالنتائج الظاهرية. كمثال على ذلك كان الإمام الخميني قدس سره يعتبر عاشوراء عاملاً من عوامل بقاء الاسلام وترسيخه، ويرى انّ مراسم عاشوراء التي تقام كل عام انما هي إحياء لمبدأ الثورة ضد الظلم والطغاة، ويقول بأنّ البكاء على الشهيد، إحياء للثورة، وحفاظ على ديمومتها[١].

اذن يُعدّ التأسي والاقتداء إفرازاً آخـر مـن إفـرازات عـاشوراء ونتائجها، اذ تقدم عاشوراء نموذجاً أعلى للمواجهة بين فئة قليلة ـ لكنها مؤمنة ـ وبين فئة كبيرة ـ لكنها ظالمة ومتفرعنة ـ والانطلاق في تلك المواجهة حتى مرحلة الاستشهاد، مما سيفرز ايضاً ثقافة الشهادة، وهو العنصر الذي لعب دوراً مهماً في الحركات السياسية التي شهدتها ايران من قبل.

ملء الفراغ القانوني

في المجتمع غير المدني وغير الحقوقي الايراني ـاي المجتمع الذي كان يخضع لسلطة وهيمنة شخص واحد، ويفتقد للنظام القانوني، والبرلمان، والدستور ـ كان امر الشاه فوق القانون والبرلمان والدستور، ولم يكن هناك وجود لقانون ينظم الحياة الاجتماعية. غير انّ الاعتقاد الديني للشعب كان العامل الذي يعترض طريق الممارسات غير السليمة، ومحفّزاً يدفع الافراد باتجاه العمل الصالح والسلوك الصحيح. فبالرغم من عدم وجود الشرطة الاجتماعية ـاي القانون والمنفذ والتنفيذ العادل ـ لكنّ عقيدة الشعب كانت تلعب دور الشرطة المخفية التي تسيطر على الافراد وتراقب تحركاتهم من الداخل. لهذا السبب بالذات لو تأسس نظام قانوني يكون اساساً لتضامن المجتمع المدني ـواساساً للمجتمع العضوي والصناعي، حسب تعبير علماء الاجتماع ـ وأصبح هذا المجتمع في امتداد نظام العلاقات الدينية وليس بديلاً عنه، لتحقق المجتمع المثالي.

وأقول ليس من زاوية الشعور الديني، بل من منظار علم الاجتماع، انه حينما لم يتم تدوين، وتعليم، وتطبيق نظام قانوني وحقوقي متكامل، وحينما تنتهي أعمال إساءة الحكم الديني الى إضعاف المؤسسة الدينية، فلن يصطف حجر فوق حجر، ولن يتبلور أي اساس لظهور تجانس اجتماعي. وآنذاك سوف يكون انهيار

المجتمع، امر لا مهرب منه.

رغم ان الدين كان يلعب في جميع المجتمعات ما قبل الصناعية دور الموحِّد والمنسِّق، غير انّ دراسة التاريخ تكشف عن انّ الدين لم يلعب هذا الدور بشكل واحد فيها جميعاً، وانما كان يتميز بالشدة والضعف. وكانت تعتمد تلك الشدة او الضعف على العناصر الموحِّدة في داخل الدين نفسه. فمثلاً تقام مراسم القداس الديني في العالم المسيحي مرةً واحدة اسبوعياً داخل الكنيسة، بينما تقام في العالم الاسلامي خمس صلوات يومياً داخل المساجد، فضلاً عن صلاة الجمعة وشتى الطقوس الدينية الجماعية التي تبلغ ذروتها في اجتماع الحج العظيم. وتمتلك المجتمعات الشيعية فضلاً عن هذه المراسم جميعاً، مراسم عاشوراء ايضاً التي لديها بُعد واسع وتأثير عميق على الدين والمجتمع. اذن فالدين يملأ الفراغ القانوني، وعاشوراء تقوّي الدين وترسخه.

الوقاية من أعراض المجتمع الحديث

المجتمع المدني الذي يتصف بخصائص مجتمع المدينة الصناعية، يرى علماء الاجتماع انه يتميز بما يلي: النفوس الكثيرة، والفردانية، واتجاه النظام الاخلاقي نحو الفوضى، وتزايد الفساد بفعل ضياع الافراد في وسط المجتمع الكبير، وعدم التجانس، والعلاقات الجافة وغير العاطفية، والحيرة، والاضطراب والشعور بانعدام الأمن، وهيمنة لغة المال، والانفلات، والحياة الآلية، وغيرها.

ويصبح ذلك المجتمع مجتمعاً تعددياً، وقائماً على المبادئ والقواعد المنطقية وقلّما يقوم على العواطف، ويتسم بالتفرد، والتـغرب عـن الذات.

في مثل هذا المجتمع يصبح الفرد وحيداً بين الجـماهير، اي لا وجود للتضامن الاجتماعي. ومـما لاشك فـيه هـو انّ مـن غـير المنطقي ترجيح النظام التقليدي الذي يفتقد في الظـاهر لأعـراض الحياة المدنية الحديثة، لأنّ هذا النظام ومع ما يتميز به من جوانب ايجابية، لديه بعض الجوانب السلبية ايضاً. هذا من جـانب، ومـن جانب آخر لا يعد المجتمع المدني سلبياً من جميع الجوانب، لذلك فالأمر لا يدور بين انتخاب أحد هذين المـجتمعين او النـظامين، وانما يجب ان يكون كل منهما مكملاً للآخر طبقاً للمفهوم الحقيقي للتكامل. لذلك بوسع المجتمع المدني ان يظهر في ميدان مـناسك التضامن مع الاحتفاظ بتركيبته اللازمة في الحضارة الجديدة، من دون التطاول او المس بحرمة حدود كل منهما او إعتبار احـدهما أقل أهمية من الآخر.

من اجل ان لا يـصاب مـجتمعنا بأعـراض المـجتمع المـدني الصناعي، وألا يكون مصيره كمصير المجتمع الغربي، عليه ان يفكر بالاندماج ويـتحرك فـي هـذا الطـريق، ويكـرّس ادوات المـدنية الجديدة لخدمة التضامن الاجتماعي وتعزيزه. فـالمجتمع المـدني الكبير في الغـرب، يـضيع فـيه الفـرد بـين الامـواج الجـماهيرية المتلاطمة، اما في ايران فإنه يجد نفسه في الاجتماعات والمراسم

الجماعية العاشورائية الكبرى، انه يشترك مع الآخـرين بـالمشاعر والعواطف والعقيدة.

ديمومة القيم

مع كل ثورة بشرية كبرى، وفي ظل كل حضارة جديدة، تتغير جميع العلاقات الاجتماعية، فتظهر انماط جديدة للأسرة، والحب، وطريقة العمل، والنظام الاقتصادي، والمعارضة السياسية. ويـقول «توفلر» انّ الحضارة الجديدة تصطدم في آلاف المواضع مع القيم، والمفاهيم، والأساطير، والمعنويات التي كانت سائدة في المجتمع القديم، وتقدّم تعاريف جديدة لمفاهيم الله، والحب، والعدالة، والقوة، والجمال الخ، وتخلق عقائد وأفكاراً جديدة، وتغيّر نوع التسليات وحتى طعم الأطعمة.

بما انّ بعض القيم الاجتماعية تتعرض للتغيير او يـتم التـخلي عنها تدريجياً، وتُخلق بدلاً منها قيم جديدة، لذلك تـصطبغ القـيم بصبغة النسبية. ومع انّ القيم بعضها نسبي وبعضها مطلق بـالذات، غير انّ عدم مقاومة القيم للتغييرات، يعمل على سرعة الانقطاع عن القيم، فيظهر الجيل الجديد في وضع لا يفهم فيه لغة الجيل القديم، لذلك يتصور وجود تعارض بين قيمه وقيم الجيل الذي سبقه، بدلاً من ادراك انّ القيم الجديدة هي اللون المتكامل للقيم القديمة.

بالرغم من التغييرات التي طـرأت عـلى النـظامين الاقـتصادي والاجتماعي في ايران خلال العقود الاخيرة، فمن بـين التأثـيرات

المهمة لعاشوراء، هو إعادة طرح القيم في مراسم عاشوراء من كل عام، والتأكيد من جديد على المودة، والايثار، والشهادة، والتحررية، والتدين، مما يجعل من عاشوراء والمراسم التي تقام خلال شهري محرم وصفر، مصدراً دائماً لضخ القيم والمبادئ الإسلامية الرفيعة في دماء المجتمع. ففي كل عام تسمع الآذان اصداء صوت الحسين عليه السلام الهاتف: «ان لم يكن لكم دين فكونوا أحراراً في دنياكم»، وهو هتاف يطرق ابواب المجتمعات المدنية الصناعية وشبه الصناعية، اي انه القيمة التي كانت من اولى ضحايا المجتمع الصناعي الغربي.

الايثار، هو أحد الأسس الأصلية للاخلاق[٢]، ومن الالهامات الصريحة لعاشوراء، بينما لا معنى لهذا اللون من القيم الأخلاقية في المجتمعات الحديثة.

من القيم المتكررة الاخرى لعاشوراء، التعارض بين العدل والظلم، والحث على التمرد على الظلم عن طريق رمزية تاريخ عاشوراء.

الديمومة الثقافية

دراسة تاريخ المجتمعات تكشف عموماً عن انّ كل جيل يواجه الانقطاع الثقافي والتاريخي عن ماضيه. وبصرف النظر عن انّ هذا الانقطاع قد يكون تمهيداً للتجديد، والتطوير، وإعادة البناء، لكنه يؤدي غالباً ـ لاسيما في المجتمعات المتخلفة ـ الى انتزاع الهوية في

ظل اجواء يتم التركيز فيها على نشر ثقافة معينة في شتى ارجاء العالم، وما يتبع ذلك من ظهور التغرب والغربية، والتنصل بالتالي من القوميات المحلية.

في ظل تصاعد وتيرة الفوضى، بدأت تطفو على السطح في مجتمعنا ظاهرة خطيرة وهي انّ الجيل الجديد بات يعاني من حالة الانقطاع عن الماضي الثقافي، ويكاد لا يعرف شيئاً عن تاريخه القديم، بل وحتى عن تاريخه الحاضر. وهذه الظاهرة التي تُعدّ عاملاً للشعور باللا هوية في جيل الشباب، وتزعزع الثقة بالنفس، باتت تشكل أرضية مساعدة للانجذاب الى التيارات غير السليمة، والخضوع لتأثير العوامل المخربة.

من طرق مجابهة الانقطاع الثقافي، هي إحياء مجد الحضارة الاسلامية الايرانية المتألقة. وكان النظام البهلوي يحاول تحقيق هذا الغرض عن طريق إحياء «الملكية الايرانية القديمة». كما يمكن مجابهة هذا الانقطاع والتصدي له من خلال نقل التراث الثقافي الى الجيل الجديد بواسطة الآثار المكتوبة والمصوَّرة، وكذلك الارتفاع بوعي الشباب، والنهوض بهم فكرياً وعلمياً.

حينما نقارن بين ايران والمجتمعات الاخرى، نجد انّ الانقطاع الثقافي والتاريخي للجيل الجديد، أعظم عند المجتمعات الاخرى مما هو عليه في مجتمعنا الايراني، لأن الحضارة الحديثة تركز نظرها واهتمامها على المستقبل. وتُعدّ عاشوراء ومراسم تكريمها وإحيائها في كل عام، من العوامل المهمة التي تشد المجتمع الى

ماضيه وتربطه بتاريخه الطويل، وتمزج المشاعر الراهنة بالأحداث التي حدثت قبل قرون. اي انّ تأثيرها المهم الخفي هو الحيلولة دون الانقطاع عن الماضي. لذلك اذا اتُّخِذ الوضع القائم ـ بفعل ممارسات اساءة الحكم الديني ـ أساساً لإبداء الرأي في التقاليد الدينية وإضعاف هذه التقاليد، فإنّ ذلك سيحرم مجتمعنا من أحد العوامل التي تحول دون الانقطاع الثقافي والتاريخي. وباتت هذه الظاهرة الخطيرة تتسع تدريجياً في هذا اليوم.

الاقتداء والتوجيه

قلنا قبل ذلك بانّ الاقتداء هو أحد التأثيرات الظاهرة لعاشوراء، لكنّ الذي لابد من إلفات النظر اليه هنا هو انّ الاقتداء يُعدّ أحد الأساليب المؤثرة في السيطرة الاجتماعية وتوجيه جيل الشباب، وهذا يُعدّ من التأثيرات الخفية المهمة لعاشوراء. ويتم من خلال ذلك تحقيق معرفة حقيقية بأبطال واقعة عاشوراء، وتكريم ائمة المسلمين وآل الرسول ﷺ، وتثمين دور المفاخر الايرانية ـ الاسلامية. وكلما كان هذا المثال او النموذج اكثر عقلانية وواقعية ووصولاً، وغير مرتبط بالعواطف تماماً ولا ينزع نحو الالتصاق بالماضي، كلما كان أكثر ثباتاً ودواماً.

إذابة الفواصل

قلنا انّ معظم علماء الاجتماع يعتقدون بأنّ التأثير الأساسي

لعامل الدين يتمثل في خلق التجانس والتضامن الاجتماعيين. فمن وجهة نظر الدين انّ جميع الناس متساوون امام الله تعالى، وقد قال القرآن الكريم ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾(٣). ومن ميزات المراسم العاشورائية التي تلفت الانتباه انها يشترك فيها جميع الناس من جميع الطبقات الاجتماعية. فيختلط العامل، والكاسب، والاستاذ الجامعي، والغني، والفقير، والمدني، والقروي، والرئيس والمرؤوس، من دون تمييز بينهم، وفي ظل وضع واحد، ويدفعهم شعور واحد. لذلك تتوفر في هذه المراسيم فرصة ثمينة جداً لاذابة سائر الفواصل القائمة.

التمثيل

الهدف الأساسي من إجراء التمثيل العاشورائي هو «حفظ»، و «إحياء»، و «نشر» القيم. ومن الواضح انّ التمثيل يتعامل مع عيون الناس وعواطفهم اكثر من تعامله مع عقولهم وأفكارهم. فتؤثر التمثيلية او المسرحية العاشورائية من خلال العين على الروح وليس عن طريق الفكر. وموسم الحج ومراسم عاشوراء الطويلة التي يمكن ان تُعدّ من نمط التمثيلية والمسرحية وتهدف الى التذكير وتقريب كثير من المعاني، فضلاً عن كونها ظاهرة دينية، يمكن ان تتحول الى احد موضوعات علم الاجتماع.

هناك العديد من المذاهب والمدارس الفلسفية التي يمكن أن تقوم بمهمة الجذب والاستقطاب وتعمل على ايجاد التضامن

بواسطة الكثير من النشاطات من قبيل المناورات، والمسرحيات، والتمثيليات، والاجتماعات التي تعمل على إثارة المشاعر وتهييج العواطف. ولكن لابد من الإشارة الى الحقيقة التالية وهي انّ الافراط في ذلك يؤدي الى تحويل الناس الى وسيلة، اي انّ هذا النشاط سيطلب الناس من اجل التجمع فقط، فيتحول الى مجرد حركات خالية من المحتوى، وتفتقد الى الرصيد الفكري، مما يعمل على افراغ هذه الممارسات الهادفة من جميع ما تتميز به من هدفية وحيوية ومعنى. ولاريب في انّ استمرار تأثيرات ونتائج العناصر الدينية، لا يتحقق إلّا من خلال المواكبة بين العين (العاطفة) والعقل.

مراحل حدود التأثيرات الدينية

العقل الانساني ـ طبقاً لما يذهب اليه العالم الاجتماعي ياكوبسن ـ يخضع لمنطق ثنائي القيمة، كالحار والبارد، والأسود والأبيض، والجمع والفرد، فيُطلق على هذه الأزواج إسم «التناقضات المزدوجة» كالحزن والسرور، والدعاء والعمل، والصعب والسهل، وما الى ذلك. لهذا يُعدّ انتهاك حدود أحد الفردين في كل زوج من هذه الأزواج المزدوجة، امراً تترتب عليه نتائج غير مطلوبة كالمصير الذي آلت اليه المسيحية بفعل تطرف القرون الوسطى وردة الفعل المتطرفة خلال عصر النهضة الاوربية. فلكل عنصر من هذه الأزواج المزدوجة تأثيره الخاص، وليس بوسع ايٍّ من العنصرين ـ في كل زوج ـ الحلول محل العنصر الآخر.

بما انّ الحاجة ام الاختراع، وبما انّ الحاجات الإنسانية متنوعة، لذلك تتنوع اختراعات الإنسان، ويُعدّ الافراط او التفريط في تلك الاختراعات، بحيث لو ادى الى إحلال احد العنصرين المزدوجين محل العنصر الآخر، سبباً في التفريط بكلا العنصرين وفقدان تأثيرهما معاً.

على صعيد ذكرى استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، نشهد في كل عام إقامة مراسم الحداد والتأبين على مدى اربعين يوماً على الاقل، لكنّ الذي يستحق فقدانه كل هذا الألم والحزن، لابد ان يستحق ميلاده السرور والبهجة ايضاً. غير انّ مراسمنا وطقوسنا لا تلتزم بهذا التوازن، فنلاحظ سيطرة ثقافة الحداد والبكاء، ونشاهد كل هذه النشاطات ذات طابع الحزن والحرقة في ايام استشهاد الإمام الحسين عليه السلام بينما لا تحظى ذكرى ولادته بسوى الاشارة اليها في المفكرة او إطلاق اسم «يوم الحرس» على يوم ولادته. وقد تضخم عنصر الحزن الى درجة بحيث اصبحت ذكريات ولادات سائر الأئمة مصحوبة بالرثاء والبكاء، بل بتنا نسكب الدموع حتى في عيدي الفطر والأضحى، وأصبحنا وكأننا لسنا بحاجة الى شيء آخر غير النحيب والدموع. وبلغ هذا الأمر حداً دفع بالإمام الخميني قدس سره للقول: لربما يصفنا المتغربون بأننا شعب باك بينما ليس بوسع أحدنا التصديق بمقدار الثواب في مقابل قطرة الدمع... مجالس الحداد ليست من اجل البكاء على سيد الشهداء والحصول على الأجر والثواب، طبعاً الأجر موجود... لكن المهم هو ذلك

الجانب السياسي والاجتماعي «فلو ادركوا حقيقة الأمر، لما وصفونا بالشعب الباكي...»[٤].

اذن عدم مراعاة حدود ومديات كل حاجة طبيعية يؤدي ولا شك الى تجاهل سائر الحاجات الطبيعية الاخرى. لكننا اخذنا نلاحظ في الفترة الأخيرة ظهور نوع من التغيير التدريجي في مراسم عاشوراء البسيطة غير المتكلفة، بحيث باتت تبدو اشبه بحفل للتسلية، مما ينم عن ظهور حاجة جديدة الى التسلية والتفنن والتي راحت تُشبع نفسها من خلال التمثيل التأبيني وتحريفه التدريجي.

الحداد والايمان بالحياة والموت

يمثل توازن الحاجات وتلبيتها، توازن الحياة. فالموت والحياة حقيقتان جبريتان لا مفرّ للإنسان منهما. «ففي كل منا خليط من الايمان بالموت والايمان بالحياة. لذلك ليس بالأمر المهم وجود او فقدان أحد هذين الإيمانين عندنا، بل المهم هو مَن منهما هو الاقوى كي يعيّن ويرسم سلوك الانسان... فالمؤمنون بالموت اناس ينزعون للتحدث عن الموت، والدفن، والألم، والمرض أكثر من نزعتهم للتحدث عن الحياة، والسرور...»[٥].

الاسراف والتكرار في مراسم الحداد والحزن، حوّل ثقافة شعبنا الى ثقافة الحزن والبكاء والموت، حتى انه لا يفرح بولادات الأئمة بالقدر الذي يحزن فيه باستشهادهم. وحينما تترسخ هذه الثقافة

وتتعمق روح البكاء والنحيب والموت، يتضاءل الحماس والأمل بالحياة، ويتوقف المجتمع عن النشاط والحركة والإبداع والتطور. ويمكن من خلال مراعاة حدود تاثيرات العناصر الدينية، القيام بعملية التنقيح الثقافي، وتحويل حماس العيش والأمل بالحياة الى قوة ترسم سلوك الإنسان. لذلك كان الهدف من استشهاد أبطال عاشوراء، هو التصدي للسلبيات والمظالم الاجتماعية، وخلق ظروف افضل للعيش وتقريب الإنسان الى الله.

الهوامش

١ ـ تبيان، الجزء الثالث، ثورة عاشوراء في كلام الإمام الخميني قـدس سره، مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني، ص ٥ ـ ٦، و ١١ ـ ١٢.

٢ ـ معرفة الاسلام، الدكتور علي شريعتي، ط حسينية الارشاد، ص ٣٠٥ ـ ٣٢٠.

٣ ـ سورة الحجرات، الآية ١٣.

٤ ـ تبيان، ج ٣، ص ١١ ـ ١٣.

٥ ـ السينما والحياة، مجيد محمدي، ص ١٧ ـ ٢٠.

مراسم الاربعين، فلسفة التكرار، وفصل الازدهار[1]

---

١ ـ كلمة العدد في اسبوعية «ذكرى الانصار»، الناطقة باسم مؤسسة شهيد الثورة الاسلامية الايرانية، ١٩٩٧.

موضوع «الأربعين» ـ اي اقامة مراسم تأبين الموتى بعد مضي اربعين يوماً على وفاتهم ـ وإن كان ذا سابقة قبل الاسلام حسب ما يذهب اليه بعض المؤرخين، لكنه اصبح حيوياً بعد الاسلام وتحول من خلال واقعة عاشوراء الحسينية الخالدة، الى سنّة راسخة في عالم التشيع، والى منطلق لكثير من الحركات الاجتماعية.

مراسم الأربعين، تكرار لمراسم اليومين الثالث والسابع. وسنّة الأربعين، إستمرار للأربعينيات المتسلسلة. ويجب البحث عن اساس الحاجة لهذا التكرار في تكرار وتشابه السجايا النفسية وتركيب نظام الإنسان الحياتي ـ العصبي؛ وهو ذات الأساس الذي قاد بعض المفكرين الى نظرية «تكرار التاريخ».

بالرغم من انّ اي حدث لا يتكرر مرتين، وأنّ المجتمع البشري قد تخطى عصر الجاهلية التي كانت قائمة قبل ١٤ قرناً، لكنّ

الجاهلية الحديثة هي نفس الجاهلية القديمة ولكن في ثوب آخر وماهية اخرى. كما انّ الجور والكفر والفجور في الجاهلية الحديثة هو عين الجور والكفر والفجور في الجاهلية القديمة.

لقد اقتضى الابتلاء الإلهي نهوض الشخصيات المؤمنة ووقوفها بوجه شتى انواع الجاهليات القديمة والحديثة في جميع الأزمان. ومثّل الإمام الحسين عليه السلام الذي ورث آدم وكبار الانبياء، أسمى نماذج الثورة ضد الظلم والطغيان على مدى التاريخ. «واذا كان دم الإمام الحسين عليه السلام وانصاره قد اصبح ذا مفهوم خاص فذّ في النهر الدموي العظيم الجاري منذ صدر الاسلام، والذي لا زال الى اليوم يطوي الأرض والزمان بقوة أكبر، واذا كانت ثورة الحسين عليه السلام وشهادته لا يمكن ان تُقاس بها ثورة اخرى وشهادة اخرى، فهذا يعود للقابلية الفنية العظيمة لدى الحسين بن علي عليه السلام والتي تنطق بها كل ذرة من ذرات زمان ومكان استشهاده، والتي استطاع بها ان يفسر معنى الثورة والشهادة لجميع التاريخ.

وهكذا اصبح محرم فصل نمو وازدهار كثير من الحركات الاجتماعية والثورات الشعبية الموالية لأهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله في تاريخ ايران. فمحرم ربيع الثورات التحررية؛ ومراسم «الاربعين» ذروة هذا الربيع. واذا كانت عاشوراء عاملاً لايقاظ الراقدين، واذا كان الاسلام يعلّم كيف يجب ان يعيش الإنسان، واذا كان الإمام الحسين عليه السلام يعلّم كيف يجب ان يموت الإنسان، فإنّ من أهم إنجازات عاشوراء وآثارها هي انّها كانت ولا زالت ملهمة لكثير

من الحركات والثورات الاصلاحية والتحررية في ايران والعالم الاسلامي.

هذا الدور العظيم لثورة الحسين بن علي ﷺ لا يمكن تفسيره إلّا من خلال الدور الذي لعبته السيدة زينب ﷺ والإمام علي بن الحسين السجاد ﷺ. وبحسب المرحوم الدكتور علي شريعتي فانّ لكل نهضة او ثورة: دم، ورسالة. ونهضت العقيلة زينب، والإمام السجاد، وأسرة الإمام الحسين بمهمة نقل رسالة ثورة الحسين، فتخلدوا من خلال أداء هذه المسؤولية الكبرى. لذلك لا يقل دور حاملي رسالة الثورة ومبلّغيها عن دور الذين أراقوا دماءهم وضحوا بأنفسهم في تلك الثورة. وهذه المسؤولية العظيمة لا ينهض بها أبناء الشهداء وأزواجهم وآباؤهم وامهاتهم فقط، وانما لابد ان ينهض بها جميع افراد المجتمع.

اول أربعينية حسينية، كانت حينما تمّ القيام بمهمة ابلاغ رسالة الثورة وأداء مهامها الإعلامية، ومنذ ذلك الحين أُنيطت مهمة ابلاغ الرسالة بكل اربعينية اخرى. لذلك تصبح مسؤوليتنا أعظم من بعد الشهداء، وتقع على عاتقنا مهمة تحقيق آمالهم، وايصال رسالتهم، ورفع اللواء الذي كان في أيديهم.

ثورة الإمام الحسين بن علي ﷺ حافلة بالاخلاص، ومتميزة بالشمولية التي لابد من توافرها في كل نهضة دينية ـ انسانية. وتكشف قابليتها التامة على ان يتأسى بها جميع الناس، عن فلسفة تكرار الأحزان والمآتم. ولاشك في انّ الدين الاسلامي يدين في

انتشاره وخلوده، لثورة الإمام الحسين عليه السلام. وقد قال الإمام الخميني قدس سره: «كان يسعى الأمويون للقضاء على اصل الاسلام، وتأسيس دولة عربية»[1]، وكانت ثورة الإمام الحسين عليه السلام إنقاذاً للاسلام من مخالب القومية. وحينما تخلص الاسلام من طوق القومية، استطاع الانطلاق الى ما وراء الحدود. لذلك لابد من إحياء القيم الاسلامية الأصيلة، وتحطيم أسوار القومية، والعنصرية، والأنانية، من خلال التكريم المتكرر لعاشوراء والأربعين. وهكذا ندرك انّ مراسم الحزن والحداد، ومآتم التكريم، انما هي عبرة لا تكرار، وتعليم وحركة، لا صمت وسكون.

نظرة الى عاشوراء استلهاماً من سورة «العصر»

﴿بسم الله الرحمن الرحيم* والعصر* إنّ الإنسـان لفي خُسر* إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾.

سلام على الحسين، وسلام على آل الحسين وأصحاب الحسين وعشاق الحسين.

لقد كُتبتْ مئات الآثار في ثورة عاشوراء ونهضة الحسين بن علي عليه السلام، ونوقشت هذه الواقعة من شتى الزوايا وبُحثت على جميع الأصعدة. وهناك من تناولها عرفانياً، بينما نظرها آخرون من منظار سياسي، فيما انبرى قليلون لتحليلها من زاوية علم الاجتماع، فضلاً عن الاسلوبين الكلامي، والتاريخي في التعامل مع هذه الواقعة.

ارتأيتُ أنْ اتزود من القرآن الكريم، وان أعيش اجواء سورة «العصر» -هذه السورة القرآنية القصيرة- علّي استنبط منها نموذجاً

تحليلياً لعوامل الانحطاط او التقدم الاجتماعي، ثم تحليل واقعة عاشوراء استلهاماً من هذه السورة.

قبل ذلك، لابد من الاشارة الى الأمر التالي وهو انّ بالامكان تحليل واقعة عاشوراء من زاوية اخرى غير زاوية الدين. كما يمكن تناولها على أساس معطيات العلوم الحديثة، وعلى ضوء علم الاجتماع، والمعادلات السياسية. لكنّ السؤال الذي يطرح نفسه هو: اذا اردنا ان نفسّر هذه الواقعة خصوصاً والحركات السياسية والثورية عموماً من خارج زاوية الدين، فكيف يمكن ان يُنظَر اليها؟ وما هي النتائج التي يمكن استحصالها؟ وهل يمكن الحيلولة دون وقوع مثل هذه الوقائع بعد معرفة عللها، على غرار إمكانية التوقي من الأمراض الجسدية أو اكتشاف طرق علاجها بعد معرفة مسبباتها وتشخيصها؟

ما يُجمع عليه علماء العلوم الاجتماعية هو انّ الوقائع والأحداث الاجتماعية تتحقق وفق بعض السنن او القوانين، ولا تحدث عن طريق الصدفة والاتفاق، لكنّ هذه القوانين ليست قوانين رياضية. وهناك اتجاهان اساسيان في علم الاجتماع، الاول وضعي، وفيه تُبيَّن العلوم الاجتماعية على نهج وسياق العلوم الطبيعية. والثاني تفسيري وفيه يتدخل عنصر الارادة في تحليل الظواهر الاجتماعية. وكما تحدث في العلوم الطبيعية بشكل حتمي وقاطع ظاهرةٌ ما، بعد تركيب بعض العناصر، كذلك تتحقق على الصعيد الاجتماعي بعض الظواهر الحتمية عندما تتحد بعض

العناصر والعوامل الاجتماعية. وتتدخل ارادة الإنسان على هذا الصعيد، حينما تضع بعض هذه العناصر الى جانب البعض الآخر.

على هذا الأساس لو رجعنا الى المنطق القرآني فهل نستطيع ان نعرف من خلاله تلك العناصر والعوامل التي يمكن من خلال اختيارها وتركيبها الحصول على نتيجة حتمية ومؤكدة؟

اريد في حقيقة الأمر ان استخرج من سورة «العصر» قاعدة يمكن على ضوئها تحليل واقعة عاشوراء. فهذه السورة تبدأ بالقسم. ولا شك في انه كلما اتضح مفهوم هذا القسم، اتضحت اهمية ما يأتي بعده. لذلك تُعدّ بداية السورة مهمة جداً وتسعى لتبيان اهمية أربعة عوامل يمكن ان يؤدي وجودها او فقدانها الى تقدم او انحطاط مجتمع ما.

السورة تؤكد من خلال القسم بالعصر على خسران بني الإنسان إلّا اولئك الذين:

١ ـ لديهم ايمان؛ ٢ ـ يعملون الصالحات؛ ٣ ـ يتواصون بالحق؛ ٤ ـ يتواصون بالصبر.

وقبل ان نسلط الضوء على هذه العوامل الأربعة لابد من الإشارة الى القسم الوارد في طليعة السورة.

يقدم المفسرون العديد من المعاني للعصر مثل: والدهر، والزمان، والتاريخ، والنبوة، وعصر ظهور القائم، وهذا المعنى الأخير شائع بين بعض مفسري الشيعة. ويأخذ البعض العصر بمعناه العرفي، اي «ما بعد الظهر»، وهناك من يقول انه «الليل والنهار».

والمعاني الثلاثة الاولى اكثر تناسباً مع أجزاء السورة من المعاني الاخرى.

١ ـ القسم بالدهر: يقول الشيخ محمد عبده ان العرف الشائع في المجتمع العربي آنذاك هو انهم كانوا ينسبون كل فشل او شؤم او كارثة، الى الدهر. لذلك كانوا يعتبرون بعض الأوقات مباركة وبعضها نحسة، ولديهم ساعات يُمن وساعات شؤم.

طبعاً هذا التصور لا يختص بمجتمع عرب الجاهلية، فلا زلنا نشاهد في هذا اليوم حتى بين الدارسين والمثقفين افراداً يعبرون عن بعض الأوقات او الأيام بالنحسة، او يلقون جريرة بعض الأحداث السيئة على عاتق الدهر.

الناس معتادون بطبيعة الحال على القاء تبعة بعض الاخفاقات او الأحداث المؤلمة على كاهل العوامل الخارجية التي لا دخل لارادتهم واختيارهم فيها، مثل الحظ، والزمان، والدهر، والآخرين. فعلى سبيل المثال حينما يقترف أحدنا ذنباً او يقترف جريرة فإنه يتهم كل أحد بذلك إلّا نفسه. بل اننا ننسب جميع المشاكل والأزمان والفوضى الى الحكومة ـ رغم انها سبب في كثير منها ـ من دون ان نفكر في مدى مساهمتنا نحن كمواطنين في تلك المشاكل والأزمات.

اذن حينما يقع حدث ما، يبحث الأفراد عن مقصر آخر غير انفسهم، ونادراً ما يحاول أحد ان يبحث عن دوره بالذات في ذلك الحدث ومسؤوليته عن ذلك التقصير.

ما يحدث في الواقع الاجتماعي، يمثل محصلة ونتاج اعمال جميع الأفراد في ذلك المجتمع، لكننا لم نتعود ولم نتعلم ان ننتقد أنفسنا ونحاسبها.

نشير هنا الى اننا لا شأن لنا بالمفهوم الفلسفي للزمان، لأنّ الزمان لديه وفق هذا المفهوم وجود اعتباري وليس لديه وجود حقيقي. والزمان شيء ننتزعه من «الحركة»، لكنه مترسخ في أذهاننا الى درجة بحيث بتنا نضفي عليه هوية موضوعية ونقول له بوجود مستقل.

من اجل الّا نشط عن البحث، لا نريد الدخول كثيراً في تفاصيل اعتبارية الزمان، ونعود الى ما نريد التأكيد عليه بهذا الشأن وهو اننا -بني الإنسان- نحاول في القديم والحاضر -الذي يلقّب بعصر الحداثة وما وراء الحداثة- ان نتّهم الدهر في جميع ما تلاقيه البشرية في مسارها من ويلات وكوارث.

القسم الذي يقسمه الله تعالى بالعصر، يهدف الى ازالة مثل هذا التصور من ذهن الإنسان، اي انه تعالى يبرّئ ساحة العصر والدهر؛ بمعنى انّ العصر بريئ وغير مقصر، واذا كان هناك تقصير، فانه يرجع الى اعمال الإنسان نفسه وممارساته الخاطئة.

على ضوء شأن النزول الذي يشير اليه المفسرون، يُعدّ القسم بالعصر، لوناً من ردة فعل ازاء اعتقاد الناس آنذاك الذين كانوا يلقون تبعة كل شيء على عاتق العصر. وبذلك يصرح الله تعالى بأنّ الإنسان نفسه هو الذي يقف وراء سعادته وشقائه وسعادة وشقاء

أبناء جنسه، وعلى الإنسان الّا يبحث عن عوامل اخرى ليست تحت تصرفه واختياره.

يقول المرحوم محمد تقي شريعتي انّ الزمان عبارة عن ظرف من الممكن ان تقع فيه اعمال الخير واعمال الشر. ولو وقعت فيه حادثة مكروهة، فلأننا لم نقم بأعمال الخير وأقبلنا على أعمال الشر. لذلك يُعدّ القاء مسؤولية الإخفاقات والانكسارات على عاتق العصر والدهر والأيام، تبريراً يستطيع من خلاله الكسالى التنصل من المسؤولية.

اذن حينما يقسم الله تعالى بالعصر، لا يدفع هذه التهمة عن العصر فحسب وانا يضفي عليه الأهمية والقيمة. فيؤكد تعالى على انّ العصر ليس هو المقصر، وانما المقصر هو الإنسان، والسبب في السعادة او الشقاء هو الإنسان ايضاً. ولذلك يُلفت انتباه هذا الإنسان الى أربعة عوامل لو أولاها اهتماماً وتمسك بها فانها تقوده نحو طريق السعادة، ولو تجاهلها وأشاح بوجهه عنها فسيجد نفسه خاسراً سائراً في طريق الشقاء. وهذه العوامل هي: الايمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر. فهذه العوامل الأُربعة هي السبب في سعادة الإنسان وشقائه، وليس العصر.

٢ـ القسم بالزمان: لربما يراد بالعصر في هذه السورة، الزمان، والذي يراد به الوقت والعمر. ويريد البارئ تعالى ان يذكّر من خلال هذا القسم الإنسان بأهمية الوقت ويحثه على اغتنامه وعدم التفريط به. ويؤكد له على انّ العمل بالعناصر الأربعة السابقة والاهتمام بها

سوف يحول دون إهدار وقت الإنسان وعمره.

القسم بالعصر، يكشف عن القيمة العظمى لعمر الإنسان. وطالما نلاحظ انّ البعض حينما ينصح غيره يقول «الوقت من ذهب» للتدليل على أهمية الوقت. ورغم مقارنة الوقت او قياسه بشيء آخر ثمين، الا انّ هذه المقايسة لا تعبّر عن الحقيقة تماماً، لأنَّ «الذهب» او أي شيء ثمين آخر، يبقى شيئاً قابلاً للتقييم، اي ان قيمته قابلة للقياس، بينما وقت الإنسان، شيء غير قابل للتقييم والقياس، ولو ذهب هدراً فلن يسد مسدّه اي شيء آخر، ولا يعوّض عنه أي شيء مهما كان ثميناً او غالياً.

لابد للإنسان من الالتفات الى الحقيقة التالية وهي: لو تبدد العمر او الوقت وضاع سدىً، فلن يكون بوسع اي شيء آخر التعويض عن ذلك الوقت الضائع، لأنه لو التفت الى هذه الحقيقة لتدفق في ضميره دافع عجيب نحو الاستخدام الصحيح الأفضل لساعات العمر، وعدم التفريط بها، وعدم إضاعتها في السفاسف قط. والشيء الوحيد الذي لديه قيمة تساوي قيمة عمر الإنسان ووقته هو العلم والأخلاق. فلو سعى الإنسان في تحصيل هذين العنصرين لكان بالإمكان القول انه ادرك قيمة وقته وعمره.

«انّ الانسان لفي خسر»، اي ان الانسان مهما سعى لاستثمار عمره فإنه في خسارة، وهذا مفهوم دقيق جداً على صلة بترجيح معنى الوقت والعمر لكلمة «العصر» الواردة في هذه السورة. فالآية لا تقول ان «الانسان خاسر» إذ لو كان الأمر كذلك، لكان كثير من

الأحكام الشرعية، بلا موضوع ولا معنى.

الانسان ليس خاسراً، وانما في حالة خسارة، اي انّ الله تعالى أهدى للإنسان هدية بإسم العمر والوقت، والتي لا يعادلها ثمن او قيمة، وليس بوسع الانسان استثمارها كما ينبغي وبما هو كاف مهما حاول أو سعى. ما بوسع الإنسان ان يفعله هو فقط التقليل من حالة الخسارة. لذلك ينطبق هذا المعنى للعصر مع ما ورد في بقية الآية الذي يؤكد على انّ التقليل لحالة الخسارة لا يتحقق إلّا من خلال اربعة اعمال فقط. وهناك قول معروف للإمام علي عليه السلام يصب في هذا الاتجاه وهو «نَفَس المرء خُطاه الى أجله»، اي انّ الإنسان يقترب من الموت مع كل نَفَس يتنفسه. وعلى هذا الأساس اننا حينما نقترب من الموت، فهذا يعني اننا نفقد مع كل نفس جزءاً من تلك الهدية الالهية التي لا تقيَّم، وهذا هو عين الخُسر.

طبعاً بعض المفسرين يصفون هذه الخسارة بأنها خسارة مادية، ولكن على ضوء سائر القرائن الموجودة في هذه السورة، تمثل الخسارة المادية جزءاً يسيراً مما أشارت اليه السورة. فالخُسر الذي فيه الانسان، أعمّ من الخسارة المادية والمعنوية، لذلك ورد في بعض الروايات انّ اول شيء يُسأل عنه الإنسان يوم القيامة هو «اين أفنى عمره؟». وبهذا المعنى يمكن تعميم قوله تعالى ﴿انه لا يحب المسرفين﴾، إذ حينما نعبّر عن إهدار واضاعة الطعام والأشياء العادية بالاسراف، فهل يمكن الّا نعتبر تبديد العمر واضاعته إسرافاً؟ اذن

قوله تعالى ﴿انه لا يحب المسرفين﴾[1]، ينهى عن الاسراف سواء كان ذلك في المأكولات او المشروبات او أيام العمر، بل لابد ان يكون اكثر تركيزاً على الأشياء ذات القيمة الأكبر. لذلك يُعدّ تبديد رصيد العمر، من أبرز مصاديق الاسراف في الحياة، ولابد ان يكون المرء مسؤولاً عن ذلك، لذلك يقول الله تعالى: ﴿ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم﴾[2]، فليس هناك احد غير الله تعالى ـ لا من حيث الجدارة ولا من حيث المقام ـ بوسعه ان يتعامل مع الإنسان على نفسه وعمره.

٣ ـ القسم بالتاريخ: انا لم اجد في أقوال المفسرين قولاً يفسر العصر بالتاريخ، عدا ما صدر عن آية الله منتظري في بعض لقاءآته الخاصة بالناس. ويتناسب القسم بالتاريخ مع سياق السورة، من حيث أن الله تعالى يريد ان يؤكد على وجود سنة تاريخية تؤكدها التجارب التاريخية، خلاصتها انّ انحطاط الأمم او رقيها يعتمد على عدم وجود او وجود اربعة عوامل هي: الايمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

اذن ما جاء بعد القسم بالتاريخ يمثل خلاصة التاريخ، ويشهد عليه التاريخ الذي يقسم به الله تعالى. وهذا ما يؤكد على وجود سنّة تاريخية وقانون يتحكم في الأحداث التاريخية. اي انّ

---

١ ـ سورة الاعراف، الآية ٣١.

٢ ـ سورة التوبة، الآية ١١١.

الاحداث التاريخية لا تتحرك لوحدها وانما هناك سنّة تاريخية تحركها، وقانون تاريخي يدفعها باتجاه السمو او الانحطاط طبقاً لطبيعة المجتمع والوضع الذي يتميز به.

مما سبق نستنتج انّ «والعصر»، قسم يريد ان يوضح عظمة الكلام الذي يليه. وبما انّ المفسرين يعتبرون «أل» في كلمة «العصر»، «أل» الاستقراء، فهذا يعني انّ جميع المعاني التي ذكرناها لكلمة «العصر» صحيحة، اي يمكن لمفردة «العصر» ان تستوعب جميع هذه المعاني.

اذن قوله تعالى «والعصر» قد أماط اللثام مقدماً عن عظمة ما سيأتي بعد هذا القسم. اي انه كذلك مقدمة للدخول الى ما تريد هذه السورة أن تتحدث عنه.

﴿والعصر* انّ الانسان لفي خسر* إلّا الذينَ آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحقِ وتواصوا بالصبر﴾.

يقسم تعالى بالعصر على ان الانسان في حالة خسران، «إلّا الذين...»، فهناك من هم في حالة الخسران عدا فئة تشير اليها الآية. اي انّ هناك استثناءاً لقاعدة تقول «ان الإنسان لفي خسر»، والاستثناء يشمل الذين:

١ ـ آمنوا: سمعنا عبارة «لولا الله لأصبح كل شيء مباحاً»؛ وعبارة «الذين آمنوا» في القرآن تعني اننا لو الغينا الله من ميدان الحياة ومسرح الوجود لأصبح كل شيء مباحاً ولما استقام حجر على حجر. فلولا الايمان، لما كان هناك وجود لأي مبدأ او ضابط،

ولظهر الفساد والفوضى والتخبط ولأدى عدم الايمان الى التعدي على حقوق الآخرين وانتهاك حرياتهم وحرماتهم[١].

الايمان معناه، رؤية الله تعالى حاضراً وناظراً. ولا شك في ان الذي يرى نفسه واقفاً في ساحة الحضور الالهي وتحت النظر الرباني ليس بوسعه ان يعصي ويعتدي ويظلم. لذلك لو رأيتم أنّ هناك من يظلم ويعتدي ـ لاسيما الحكام ـ فاعلموا انه غير مؤمن بالله، إذ انّ الله تعالى أرحم الراحمين. فهل يمكن ان يكون لدى المرء ايمان بالله ولا يداري أحداً؟ فالذي يظلم ويتعامل مع الآخرين بلغة العنف، لابد وأن يكون هناك خلل في ايمانه حتى ولو كان لسانه يلهج بذكر الله. ومن هذا المنطلق يمكن القول بأنّ الايمان مصدر ورصيد الأخلاق والعمل الصالح.

٢ ـ وعملوا الصالحات: فالعمل الصالح هو العامل الثاني من العوامل الأربعة التي يشير اليها الله تعالى. وتعبّر الآية عن العمل الصالح بصيغة الجمع اي «الصالحات»، مما يدل على انه ليس ذا معنى محدد وانما يمكن ان يكون متعدداً ويأخذ صوراً شتى. بتعبير آخر انّ الاعمال الصالحة ليست فقط تلك الأعمال التي تنطبق مع

---

١ ـ حتى مع عدم وجود الايمان بالله، فلابد ان تكون هناك سلسلة من الاصول الاخلاقية، حيث يمثل الايمان بالله رصيداً لها في حقيقة الامر. فقد لا يكون البعض مؤمناً بالله، لكنه قد يكون اخلاقياً غير انّ اخلاقية الذين لديهم ايمان حقيقي بالله تكون اعظم وأشد رسوخاً من غيرها. وهذا ما برهنت عليه بحوث علماء الاجتماع التي أجروها في شتى المجتمعات.

الشرع وانما هي أعم مما يقرره الشرع. فالعمل الصالح هو ذلك الشيء الذي يفهمه العرف، اي العمل الذي يرى الضمير الجمعي انه صالح.

في علم الحقوق والقانون، حينما نبحث عن الجريمة، نقول انّ الجريمة هي ذلك الشيء الذي يجرح الضمير الجمعي. اي ان الضمير العام هو الذي يحكم على الأعمال ويميز بين ما هو إجرامي منها وغير إجرامي. وتعود فلسفة ظهور هيئة المحلفين الى هذا الأمر بالذات حيث يحكم الضمير الجمعي من خلال ممثليه على الأعمال وهل هي جارحة للضمير العام ام لا.

اذن فكما انّ الضمير الجمعي او العام هو الذي يحدد الجريمة ويشخصها، كذلك يقوم هذا الضمير بتشخيص العمل الصالح وتحديده، اي انّ الضمير الجمعي هو المرجع في تشخيص طبيعة العمل وهل هو عمل صالح ام لا. ومما يؤكد على انّ المراد بالعمل الصالح في هذه السورة ليست فقط الاعمال التي تجري في إطار الأحكام والقواعد الفقهية، الآية القرآنية التالية:

﴿انّ الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[1].

فاذا كان المقصود بالعمل الصالح، ذلك العمل الذي يجب ان

---

١ ـ سورة البقرة، الآية ٦٢.

ينطبق مع القواعد الفقهية والشرعية، فما معنى ان يثيب الله تعالى اليهود والنصارى والصابئين على اعمالهم الصالحة؟ هذه الآية تقول انّ هؤلاء إذا ما قاموا بعمل صالح ـ بصرف النظر عن صحة او خطأ عقيدتهم ـ فالله تعالى يؤجرهم على هذا العمل. وهذا جزء من حتميات ومقتضيات العدل الالهي. فالله تعالى حينما يقول ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾[1]، ـ اي حينما لا يتجاهل الله جزءاً يسيراً من عمل الخير لانسان ما ـ فهل يمكن ان يتجاهل العمل الصالح لمجرد انه صادر عن انسان غير مسلم؟

٣ـ وتواصوا بالحق: مع انّ العمل الذي سبقت الاشارة اليه قد يكون شاملاً للتواصي بالحق والتواصي بالصبر أيضاً، لكنه تعالى افرد الحديث عنهما لأهمية كل منهما. والملفت للنظر في هذه الآية، استخدام كلمة «التواصي» التي هي على وزن «تفاعل». والذي لديه المام باللغة العربية يعلم ان الكلمة التي تأتي على هذا الوزن تؤدي دوراً مزدوجاً. فكلمة «تضارب» ـ مثلاً ـ المشتقة من الفعل «ضرب» تعطي معنى أنْ تَضرِب وتُضرَب، اي انها تحمل مفهوم التبادل ايضاً. وهناك معان مختلفة للكلمات الواردة على وزن تفاعل، منها توالي الشيء وتكرره.

اذا اخذنا هذه المعاني بنظر الاعتبار سيكون معنى الآيات

١ـ سورة الزلزلة، الآيتان ٧ و ٨.

كـالتالي: النـاس فـي خسـارة إلّا اولئك الذيـن آمـنوا، وعـملوا الصالحات، والذين يؤدون هذا العمل بشكل مـتكرر ـ وليس مـرة واحدة ـ ولا يعتقدون بأنّ مهمتهم تنتهي من خلال اداء العمل لمرة واحدة، وانما يجب ان يوصوا بالحق، ويقبلوا التوصية بالحق بشكل متكرر ومتوال.

ما إستقطب اهتمامي كثيراً هو انّ واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يعدو عن كونه واجباً خاصاً تجاه الآخـرين، بـينما التواصي بالحق أعمّ من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ انّ التواصي بالحق او عدم التواصي به يمثل رمـز تـقدم المـجتمع او انحطاطه وتخلفه. لذلك لابد لنا ان نوصي بالحق وان نقبل التوصية بالحق.

هذا الطريق، ليس طريقاً ذا اتجاه واحـد. وللـحق ايـضاً مـعان عديدة كالعدل، والصواب، واليقين، والأمر اللائـق. لذلك عـلينا ان نتواصى بالحق، اي ان يـوصي بـعضنا بـعضاً بـالعدل، بـالصواب، بالامور اللائقة. كذلك يمكن ان يعبَّر عن كل عمل صحيح وفكرة صائبة بـ «الحق»، وعليه لابد ان نـتواصـى بـالأعمال الصـحيحة والأفكار الصائبة. وبما انّ هذه الآية لم تركز على معنى خاص من معاني الحق وانما تحدثت عنه بمعناه العـام، فـبوسعنا ان نأخـذه بمعناه العام فنتواصى بالحق، مهما كان هذا الحق.

هناك رؤية اخرى اقرب الى رأي العرفاء تقول بأن الحـق امـر اكتشافي، اي انه يُكتشف ويُعرف من خلال التعاملات الاجتماعية.

ولو أخذناه بهذا المعنى، يكون معنى «وتواصوا بالحق» هو التواصي المستمر المتبادل بمعرفة الحق من خلال عملية التعامل الاجتماعي.

٤ـ وتواصوا بالصبر: لابد من مراعاة نفس المعادلة التي اشرنا اليها خلال تفسير التوصية بالحق. اي مثلما لابد لنا ان نقول الحق ونسمع الحق ونقبل الحق، وان يوصي كل منا غيره بالحق، وان يقبل كل منا قول الحق الذي يُقال له، كذلك لابد لنا ان نتواصى بالصبر، اي ان يوصي كل منا غيره بالصبر وان يسمع كل ما نصيحة الآخرين له بالصبر. فإذا كان ولابد ان ينقد كل منا الآخر طبقاً لمفاد «وتواصوا بالحق»، فلابد ان يكون كل منا مؤهلاً لأداء هذه المهمة العظيمة من خلال تمتعه بمؤهّل «التواصي بالصبر».

لاشك في انّ التواصي بالحق، ليس بالامر السهل، وانما يتطلب كثيراً من التحمل، وتميزاً بقسط كبير من الصبر، لأنه ـ اي التواصي بالحق ـ عمل يقتضي خوض غمار الكثير من الصعوبات، وتحمل الكثير من الشدائد والمحن.

للإمام علي عليه السلام كلمة تقول: «انّ الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد، فمن لا صبر له لا ايمان له»، لذلك لابد من الصبر في أداء المهام الرسالية، وتنفيذ التكاليف، ولا يمكن اتمام عملية التواصي بالحق من دون تحل بالصبر، سيما وانّ الصبر معيار الايمان، إذ لا ايمان من دون صبر.

قد يكون الصبر سبيلاً مفروضاً او اسلوباً لا مفرّ من اختياره في

ظل بعض الظروف. ولربما لا يتميز هذا اللون من الصبر بأية فضيلة، إذ ليس بوسع المرء ان يفعل اي شيء آخر، بينما الصبر الذي تريده هذه السورة هو «صبر البصيرة»، اي الصبر المنبثق عن الوعي والمعرفة.

العالم الذي نعيش فيه عالم التزاحم والتضارب، وطريق الحياة ليس طريقاً منبسطاً وسهلاً. عالمنا عالم الابتلاء والمحن والتمحيص، ولا ينبغي ان نفقد فيه زمام الصبر، ودفّة التحمل. فالطريق وعر ومغروس بالعواسج والأدغال، ولابد من الصبر على كل الأذى والمعاناة والمشاق حتى بلوغ الغاية وتحقيق الهدف المنشود.

الصبر بحد ذاته قاس وصعب وعسير، وتكمن فضيلته في هذه القسوة والصعوبة والعسر. لكنه ايضاً ليس مقولة فردية، وانما هو مقولة اجتماعية، إذ لا تتحقق التنمية والتطور من دون صبر. فالتصور القائم في اذهان عامة الناس ولربما في اذهان بعض المثقفين هو انّ التطور عملية كيلومترية، اي تتحقق بقفزات سريعة، بينما ارى ان التطور، والتنمية، والديمقراطية، وغيرها، امور مليمترية، اي تتحقق خلال عملية بطيئة ويُشيَّد صرحها طابوقة طابوقة.

هناك من يتصور انّ بلوغ مثل هذه الاهداف يتاح من خلال انتقالات سريعة وكيلومترية، لذلك حينما لا تتحقق مثل هذه

الأهداف، يُصاب هؤلاء بالارتباك والانفعال. فالأحداث الأخيرة[١]، من اسبابها هي انّ المجتمع كان يتصور تحقق الكثير من الانجازات وتلبية جميع مطالبه خلال فترة قصيرة، لكنّ مستوى تلك التوقعات كان عالياً الى درجة بحيث لم يكن متناسباً مع الامكانات والقوى المتوافرة، الامر الذي ادى الى ظهور شرخ عميق بين الامكـانات والتوقعات مما ادخل اليأس الى قلب المجتمع. ومن هذا المنطلق نقول انّ الصبر مقولة اجتماعية ايضاً. وعلينا الاعتراف بأنّ اي تقدم او تطور لا يتحقق إلّا إذا كان مصحوباً بـالصبر، وفـيما عـدا ذلك نصاب بالانفعال واليأس.

الصبر يوفر للمرء فرصة التأمل في الأعمال والسلوكيات، ومن ثم تقييمها ونقدها، فيقلل بذلك مـن احـتمالات ظـهور الأخـطاء والانحرافات.

الـ «واو» المتكررة في قوله تعالى ﴿إلّا الذيـن آمـنوا وعـملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾، سواء كانت واو عطف او واو استئناف، فانها لا تغيّر من اصل الموضوع عدا انها اذا كانت واو استئناف فهذا يعني ان كل عامل من العوامل الأربعة مستقل عن غيره من العوامل، واذا كانت واو عطف، فهذا يعني ضرورة تـحقق العوامل الأربعة معاً ووجوب رعايتها كي لا يتجه المـجتمع نـحو الفساد والتراجع.

١ـ الانتخابات الثانية للمجالس البلدية عام ٢٠٠٣.

هذه السورة مهمة الى درجة انّ الامام الشافعي يقول لو لم توجد في القرآن سورة غيرها، لكانت كافية لاصلاح المجتمع البشـري. ويقول السيد جمال فيها انها سورة اخرجت اصحاب الصـفة مـن المسكنة والجهل وحققت لهم كل شيء وبلغت بهم كل شيء.

سورة العصر تخاطب جميع افراد المجتمع في تبيانها لعـوامـل الفشل والنجاح. ويطرح القرآن الكريم مثل هـذه الاسـتراتـيجيات لزعماء المجتمع ايضاً لمساهمتهم فـي النـجاح او الاخـفاق الذي يتحقق للمجتمع، كقوله تعالى: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كـنت فظّاً غليظ القلب لانفضّوا من حـولك، فـاعف عـنهم واسـتغفر لهـم وشاورهم في الأمر﴾[1].

اذن فالنموذج او المثال الذي نستنبطه من سورة العصر، هو اننا إذا راعينا هذه العـوامـل الاربـعة ـ اي الإيـمان، والعـمل الصـالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر ـ فسيكون مـجتمعنا مـجتمعاً متوازناً.

ما يمكن ان نشير اليه هو انّ هذه السورة تنسجم مـع السـورة السابقة لها، اي سورة التكاثر، في الأمر التالي وهو انّ كلاً مـنهما تقدم نمطاً من البيان المتصل بالعمل الفردي والاجتماعي. اي تتم الاشارة الى طبيعة سلوك الناس بلغتين، وكيف انّ الناس في حالة خسارة وضرر، والطريقة التي يمكنهم بواسطتها الحيلولة دون تحقق

---

١ ـ سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

هذه الخسارة.

سورة التكاثر توضح بطريقة مصداقية أحد عوامل الانحطاط الاجتماعي الذي يتمثل بالتكاثر والتفاخر بالقوم والقبيلة. و «التكاثر»، كلمة على وزن «تفاعل» ايضاً، وتعني التباري والتسابق في الإكثار. فالأناس الذين يعيشون هذه الحالة، يتعرضون للخسران. ففي المجتمع الرأسمالي، لا يسمح التسابق والتنافس للشركات الرأسمالية الكبرى ان ترى من هم الذين تدوس عليهم عجلات هذا التنافس.

وبما انّ التكاثر يأتي بمعنى التفاخر ايضاً، فهناك من هم يتفاخرون ويتباهون على غيرهم بما لديهم من مال، وثروة، ونسب، ومكانة اجتماعية وما الى ذلك، ويتمادون في تفاخرهم حتى يدفعهم ذلك الى زيارة المقابر ﴿حتى زرتم المقابر﴾، للتفاخر بالأموات بعد التفاخر بالأحياء.

سورة التكاثر تشير إذن الى انّ التكاثر يشغل الإنسان ويلهيه، لكنها لم تتحدث عن الشيء الذي يلهي عنه هذا التكاثر، لذلك تترك هذه السورة يد المفسر طليقة في هذا المجال. فهل يلهينا هذا التكاثر عن العمل بالوظائف الأخلاقية والانسانية ام عن الوظائف الدينية؟ وتتصل سورة العصر بسورة الكوثر من خلال تحدثها بنبرة ايجابية عن العوامل التي تحول دون وقوع الكوارث التي تحيق بالمجتمع المتكاثر.

على ضوء هذا النمط التحليلي يمكن ادراك لماذا ظهرت مأساة

عاشوراء. فالمجتمع الذي هيمنت عليه النزعة القومية والروحية العصبية، والذي كان فيه التكاثر والتفاخر معياراً للفضيلة، وتحول فيه المال والمادية واسطة للتقويم والتثمين، وماتت فيه المسؤولية الاجتماعية المتبادلة، وتخلى فيه الناس عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورفضوا التواصي بالحق، ولم تكن لديهم القابلية على تحمل التواصي بالحق وتوجيه النقد، والمجتمع الذي لم يلتزم افراده بالأصول والمعايير وكانوا يتنصلون من العمل الصالح، ويندفعون نحو الأعمال بدافع الأنانية(١) فقط، والمجتمع الذي طغت عليه حالة اليأس والانفعال بسرعة، لابد ان يتجه نحو الانحطاط والإحباط والكسل ويهيمن عليه الظلم والنفاق، ويعاني من الفساد، ولابد ان يستولي عليه في نهاية المطاف حكّام من جنس أفراده: «كما تكونوا يولّى عليكم».

في هذا المجتمع ينزوي الحسينيون وأصحاب الفضيلة ويصبحون في الظل، فيحكم غير اللائقين واللا أخيار، بينما قد لا تصل قاعدتهم الجماهيرية الى ٢ أو ٣ بالمائة من آراء الأمة.

وبمثل هذا النمط التحليلي، يمكن الانطلاق الى قلب الأحداث

١ـ الأنانية وحبّ الغير، نقطة تلتقي عندها النظرية الاخلاقية ونظرية علم الاجتماع. فوجود نوع من الأنانية ضروري للحياة الإنسانية ويُعدّ دافعاً للبقاء ومحركاً للسعي، لكنّ الأنانية التي تضحي بحقوق الآخرين ومصالحهم، دليل على الانحطاط والتخلف.

وتحليلها. وفي علم الاجتماع يُستعان بالنظريات لتحليل الوقائع والأحداث الاجتماعية ودراستها، فتُلقي تلك النظريات باشعتها على كل واقعة فيتم من خلال ذلك ملاحظة اجزائها بوضوح واستقراؤها. وبوسعكم تحليل جميع الثورات من خلال نظرية علم اجتماع الثورة. وبوسع هذه النظرية ان تحلل بعض الثورات وتبينها.

نظرية العوامل الأربعة المتعاضدة: ١ ـ الاخلاق، ٢ ـ العمل الصالح، ٣ ـ تقبّل النقد الذي يؤكد عليه «هابرماس»، ٤ ـ الصبر البصير او الواعي والمنطقي؛ هذه العوامل يمكن ادراكها خلال عملية تفسير الأحداث والتغييرات الاجتماعية، من خارج الدين وحتى من دون ان تكون لدى الباحث معرفة بالقرآن الكريم. لكنها في حقيقة الأمر منطبقة مع النص القرآني انطباقاً كاملاً، وقد ذكرها القرآن فيما يشبه النظرية وفي كلمات قصيرة.

النمط التحليلي الذي يمكن استنباطه من سورة العصر، يمكن ان ينطبق على اي حدث اجتماعي. ونحن نريد ان نقول من زاوية دينية انّ هناك قانوناً تاريخياً أو سنّة تاريخية تسير الوقائع والأحداث على أساسها. فالعوامل الأربعة المذكورة حينما تتوفر في امة، تتطور تلك الامة وتتقدم، وحينما تنعدم في امة تتخلف تلك الامة وتفشل وتتراجع الى الوراء. بل انّ الامة التي لا تتوافر فيها هذه العوامل، يهيمن عليها الظلم والفساد والفقر. ولابد في ظل مثل هذه الاوضاع ان تتبلور الحركات الاجتماعية ويظهر الحسينيون للذبّ عن الأمة ومبادئها والتصدي لجبهة الجور والانحراف.

حينما نلقي نظرة على المجتمع العربي آنذاك، نرى انّ من الأسباب التي كانت وراء وقوع فاجعة كربلاء هي فقدان هذه العوامل الأربعة، اذ كان المجتمع يعاني من ضعف الايمان، وفقدان العمل الصالح، وعدم التواصي بالحق، وعدم التواصي بالصبر. فالمجتمع الذي دعا الحسين ﵇ الى الكوفة لانقاذه من الجور الأموي وتأسيس حكومة اسلامية صالحة، حينما يقف بوجهه القمع وتهدده لغة القوة والعنف، يستولي عليه الخوف، واليأس، والانفعال، فيجد الحسين ﵇ الزاحف من المدينة المنورة الى الكوفة لنصرة اهلها، نفسه وحيداً في صحراء كربلاء الجافة القاسية، ومطوقاً بالجيوش الجرارة.

ورغم ان اولئك الذين وجهوا الدعوة للحسين، ثم تخلوا عنه وتركوه وحيداً في ساحة الصراع غير الكفوء، قد شعروا بالندم وقاموا ببعض الثورات للثأر من الامويين والتعبير عن ندمهم وتوبتهم، غير انّ الأوان قد فات تماماً وجسد الحسين قد تقطع ارباً ارباً.

نسأله تعالى ان يوفقنا كي نكون مصداقاً بارزاً للذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر.

الفهرس